موسوعة المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الثالث

مركز الشرق الأوسط الثقافي

موسوعة
المرأة والجاسوسية

موسوعة
المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الثالث

مركز الشرق الأوسط الثقافي

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأولى

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل. سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها. دون إذن خطي من الناشر.

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

Middle East Cultural Center
For Printing, Publishing, Translating & Distributing

الإدارة العامة:

General Management:

بيروت ـ الحدث، هاتف: ٨٨٨ ـ ٤٦١٧٧٧ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ فاكس: ٤٦١٩٩٩ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ خليوي: ٦٤٠٤٩٠ ـ ٣ ـ ٩٦١
مصر ـ الدقي، هاتف: ٠٠٢٠٢٣٣٦٥١٥٢ ـ خليوي: ٠٠٢٠١٢٦٥١٠٥٦١
سوريا ـ دمشق، هاتف: ٠٣٠ ـ ٠٢٠ ـ ٠٠٩٦٣١١٤٦٤٤٠١٠ ـ خليوي: ٩٦٣٩٤٩٩٧٧٦٤

Beirut - Hadath, Tel: 961-5-461777 - 888 - Fax: 961-5-461999, Mobile: 961-3-640490
Cairo - Dokki, 002023365152 - Mobile: 0020126510561
Syria - Damascus, 00963114644010 - 020 - 030 - Mobile: 96394997764
Web site: www.lccpublishers.tk E-mail: lcc_ pub @ yahoo.com

حرف التاء

1 ـ تانيا أفسيفتش.
2 ـ تانيا ماركوفنا راديونسكا.
3 ـ تيشلي دوفيس.

تانيا أفسيفتش (*)

(Tania Avsivitch)

(-)

جنّدتها المخابرات السوفياتية للتجسس على الغرب، لكنها عملت على اغتيال الكولونيل تولجيين (مسؤول الأمن) لاغتياله والديها.

هذا، وقد يصحب استخدام الجنس أعمال التهديد، لذلك استغل رجال وزارة الأمن في موسكو فتاة حسناء اسمها «**تانيا أفسيفتش**» لا يتجاوز عمرها العشرين عاماً، وهددت بأن والديها سيعدمان لاتهامهما بعدائهما للدولة، ما لم تنفذ ما يطلب منها.

وتحت ضغط التهديد قبلت تانيا، وأرسلت إلى مدرسة الحسناوات التابعة لشرطة أمن الدولة في فيلا صغيرة مريحة في جزء منعزل في حديقة اسمها «بلوتو»، حيث دربت على استخدام جسمها الجميل كسلاح للحصول على أية معلومات سياسية أو عسكرية أو تجارية يمكن أن تعاون قضية السوفيات.

ودربت على كيفية السلوك مع أكثر الرجال تزمتاً وصمتاً، وكيف

(*) **المرجع**: صلاح نصر «الحرب الخفية ـ فلسفة الجاسوسية ومقاومتها». منشورات الوطن العربي. الطبعة الثانية 1982. ص191 ـ 193.

تتصيد هؤلاء الرجال من منتديات الليل الخاصة بالأجانب. . . وكيف تنتقل من مأدبة العشاء إلى الفراش.

ومع أن تانيا كانت بريئة النفس نقية، عني أبواها بتربيتها، فقد دربت على الحيل التي يمكن بها اقتناص الرجال وفتح الشفاه المغلقة، ودربت على كل فنون الحب المحرّمة، وبعد ثلاثة شهور كانت معدّة للقيام بأول مهمة لها.

كان الرجل الذي وجهت لاصطياده شاباً صغير السن جميل الوجه يعمل ملحقاً عسكرياً في إحدى سفارات الغرب، وكان قد عمل قائداً لسرية دبابات في الحرب الكورية، وكان من المتواتر أن هذه السرية مزودة بأحدث أنواع الدبابات التي صنعتها بلاد العالم الحر. كما أنه كان من الشائع أن الأجهزة التي كانت في مدافع هذه الدبابات كانت من نوع يفوق ما لدى الجيش الأحمر، وكانت هذه الأجهزة هي التي وجهت «تانيا» للحصول على معلومات عنها.

كان الاتصال بالشاب اليافع أيسر مما توقعت، فقد تصادف أن اصطدمت به في بهو الفندق الذي يقيم فيه، وكانت هذه الفرصة هي التي مهّدت له لدعوتها للعشاء ثم التوجه إلى المكان الذي يقيم فيه بالفندق.

كان كل ما يعني الشاب أن يحتويها بين ذراعيه. وشعرت وهي بين أحضانه بقلق عصبي بتفكيرها في الوسيلة التي تسأله بها عن مدافع الدبابات في سريته.

ولكنها لم تكن في حاجة لهذا، فبعد أن قضى بعض الوقت في الفراش، راح الشاب يتحدث عن نفسه. . . عن الحرب. . . عن الدبابات التي كان يتولى قيادتها.

وجاءت المعلومات التي تطلبها وحدها، وحينما قصّت على الكولونيل «تولجيين» كل ما وعته من أحاديث الشاب اليافع، تمكن الكولونيل من جمع النقاط من هنا وهناك ليحصل على كل ما يريد معرفته.

على أن «تانيا» كانت قد حصلت بدورها على كل ما يذهب الشكوك عمن تعمل على تصيّدهم... ذلك لأنها كانت عذراء حتى ليلتها الأولى هذه.

وكانت مهمتها الثانية أعقد، فقد وجهت للحصول على معلومات من أميركي من رجال الأعمال يزور موسكو لعقد صفقات تجارية، وكان الرجل قد زار موسكو وعدداً من البلاد، وقيل أن هناك اتفاقيات أو اتفاقات تجارية بين هذه البلاد وبين الولايات المتحدة، وكانت حكومة موسكو توّاقة لأن تعرف فحوى هذه الاتفاقات.

ولبعض الوقت ظنت الفتاة أنها تخطو للأمام وئيداً، وبدأت تستعمل كل ما أوتيت من ذكاء، ولكنها كانت في الواقع تواجه رجلاً صلب الرأس وليس شاباً مراهقاً. وحينما بدأت تضغط على الرجل، وثب من الفراش نحو ملابسه وهو يصيح:

«لقد فقدت الصواب أيتها الفتاة! لقد كنت أجد فيك شيئاً غامضاً منذ أول لحظة... لست أدري لماذا تفعلين هذا ولحساب من؟ وإن كنت أستطيع أن أفكر قليلاً فيمن يحتمل أن يكونوا وراءك... انصتي لي جيداً، لقد كنت أستطيع أن أقدم لك معلومات كاذبة ومضللة، ولكن هذه ولا شك تسبب لك بعض المتاعب، ولهذا اذهبي إلى أولئك الذين دفعوك واخطريهم بأنهم قد أساؤوا الظن في كفاية الرجل الذي بعثوك لاصطياده».

وأكمل الرجل ارتداء ثيابه. . . ثم انصرف.

وأخذت «تانيا» تنفذ أوامر جهاز أمن الدولة، ولكنها عرفت أن أبويها قد قتلهما الكولونيل تولجيين، الرجل الذي تولى رئاسة القسم الذي تعمل فيه هي وعشرات النساء غيرها.

وقررت الانتقام منه، ففي إحدى الليالي دعاها تولجيين ليقضي معها سهرة حمراء، واستخدمت أنوثتها في التغرير به ومساعدتها للفرار من الستار الحديدي، وبعد أن نفذ لها الإجراءات قتلته وهو مخمور، وهربت إلى ألمانيا الغربية حيث طلبت اللجوء إلى الولايات المتحدة.

تانيا ماركوفنا راديونسكا(*)
(Tania Markovna Radioneska)
(1924 -)

هي إحدى جاسوسات الاستخبارات السوفياتية التي اشتهرت باسم: **إيلين جنكينز** حيث هجروها إلى كندا فنظمت أكبر شبكة للتجسس والخطف والقتل.

أما إيلين جنكينز فقد كانت إحدى أكثر الجاسوسات إثارة. فقد هاجرت من إنكلترا إلى كندا حيث فتحت متجراً صغيراً في أُوتاوا.

وكان لإيلين طابع إنكليزي أصيل إلى درجة أن أصدقاءها الكنديين وزبائنها كانوا غالباً ما يتندرون حول سلوكها ذي الطابع الأكسفوردي. ولكنها كانت محبوبة وكان يؤم متجرها الصغير زبائن كثيرون لما يتمتع به من جو إنكليزي أصيل. والحقيقة أن إيلين لم تكن إنكليزية. وكان اسمها الحقيقي **تانيا ماركوفنا راديونسكا**. ولدت عام 1924 في مورمانسك وهي ابنة ميجور في الشرطة السرية في روسيا. وكان لها حق مكتسب في العمل في دائرة الاستخبارات. وهكذا قرر

(*) المرجع: «الجاسوسية في العالم». تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت 1988.

و ج. برنارد هاتون «مدرسة الجواسيس». ترجمة غسان درويش. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر. بيروت 1963. ص333 ـ 337.

منظم الحزب صلاحيتها لذلك العمل. وكانت في الحادية والعشرين حينما اجتازت جميع الامتحانات التخصصية. وعندما دخلت معهد غازينا أصبح اسمها إيلين جنكينز وكان رقم تسجيلها ب ـ 480822/ 39. جـ.

وفي أيام 1958 أدخلت إلى إنكلترا حيث أخذت تتأقلم على الظروف المعيشية في المملكة المتحدة لمدة تسعة أيام، وأمضت أكثر الوقت في كارليل. ثم قدمت إلى لندن حيث وجدت فندقاً متواضعاً في منطقة «الملك» وزعمت بأنها تبحث عن عمل كمساعدة في متجر.

ولكن على الرغم من محاولاتها جاهدة في الحصول على وظيفة ملائمة فقد كانت تقفل عائدة إلى فندقها دون نتيجة. تلك كانت كل تحضيراتها لمخططاتها في المستقبل. لقد كانت لديها أوامر من موسكو بالبقاء في لندن دون القيام بأي عمل، وذلك لخلق الحجة المعقولة بغية الهجرة إلى كندا.

وخلال مناسبات عدة أخبرت صاحبة الفندق وغيرها من النزلاء بأنها ضاقت ذرعاً بعدم العثور على عمل بينما أخذ ما ادخرته من مال يتضاءل شيئاً فشيئاً. ولما لمحت إلى أنها تفكر في الهجرة إلى كندا، شجعها بعضهم بينما تمسكت صاحبة الفندق بأن العيش في إنكلترا أفضل.

ولم تضع إيلين تلك الأشهر سدى بل تعلمت كيف تكون إنكليزية أكثر من أي إنكليزي. فقد اتخذت لها أصدقاء من أصحاب المكاتب وفتيات المتاجر. وكانت ضحوكاً بالفطرة، إلا أن نوع عملها حرمها لذة تنمية صداقات حميمة.

وفي النهاية هجرت إيلين جنكينز «مسقط رأسها» وأبحرت إلى كندا حيث وصلت في آذار (مارس) من عام 1959.

ولم تكن في حاجة للتأقلم في ذلك الوطن الجديد، فقد كانت مغتربة، ومن المفروض أن تكون غير معتادة على طريقة العيش الكندية، ومع ذلك فقد أمرتها موسكو بانتظار أوامر لاحقة قبل أن تشرع بتعاطي التجسس. وهكذا بقيت ستة أسابيع في مونتريال حيث عملت كبائعة في مخبز. وعندما أمرت بالتوجه إلى أوتاوا عمل مديرها على إقناع بائعته النشيطة بالبقاء. ولكن إيلين اخترعت لها عمة في أوتاوا فاجأها المرض وهي في حاجة إليها لتبقى بالقرب منها.

أول شاب: صندوق بريد

استأجرت إيلين شقة باهظة الأجرة في أوتاوا حيث زعمت أن عمة لها توفيت منذ عهد قريب وتركت لها ما ادخرته من مال.

وخلال أسبوعها الأول في أوتاوا جندت أول مساعد لها. منذ التقته صدفة في سناك بار وسرعان ما اكتشفت أنه كان يهتم بلقاء شخص ما من إنكلترا. فصممت على استخدامه. وهكذا أعلمت موسكو في رسالتها الميكرودوت ما يلي:

«وجدت شاباً في التاسعة عشرة من عمره يعمل ككاتب في مؤسسة معروفة. وقد أخبرته بأنه من غير المستحسن بالنسبة إلي أن أستلم رسائل شخصية من أوروبا في بيتي. فوافق على إرسالها إلى عنوانه».

ولم يساور الفتى أي شك. ومنذ ذلك الحين أخذت رسائل الميكرودوت تردها من موسكو عبر «صندوق بريدها» الجديد.

وكانت إيلين صديقة بالفعل لذلك الفتى. وكانت كثيراً ما تقدم له الهدايا. ولكنها لم تستخدمه إطلاقاً في مهمات تجسسية. فليس

لديه أي مجال في عمله للحصول على أية معلومات سرية كما كان غاية في السذاجة للقيام بمهمات مخبر. ففضلت إيلين استخدامه «كصندوق بريد» دون أن يعلم أنه كان خيطاً هاماً في شبكة تجسس.

عصابة الاغتيال

وفي غضون أشهر أربعة على وصولها إلى أوتاوا نجحت إيلين في توطيد نفسها كرئيسة تجسس، وكان مصدر قوتها الأكبر دورها كامرأة إنكليزية أصيلة في الخامسة والثلاثين من عمرها.

وخصصت نفسها لعمل الإحسان، وكانت دائماً السباقة إلى مساعدة أي محتاج. ومن وراء الكواليس لم تكن تدير عملية تجسس فحسب، بل كانت ترعى زمرة إرهاب تقوم بأعمال الخطف والاغتيال.

فقد أمرت باغتيال مهندس إلكتروني ولد في ألمانيا ويعمل في إحدى قطاعات التسليح الكندية. وكانت قد صارحته باستخدامه كمخبر رئيسي، وهددته بأنه ما لم يزودها بمعلومات فإن أقرباءه الذين يعيشون في ألمانيا الشرقية سوف «يحقق معهم». ولكن الألماني رد بجنون بأنه سوف يبلغ السلطات عن تهديداتها، وهكذا دبرت إيلين أمر تخديره وإعدامه بواسطة عصابتها الإرهابية. ودبر موته كي يبدو وكأنه انتحار.

كما دبرت أمر اختطاف مغترب سلافي إلى روسيا. وكان يعمل كواضع تصاميم في مكتب تصميم لشركة طيران. فقد عارض تهديداتها وحاول إعلام السلطات. لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك إذ دهمته سيارة أثناء اجتيازه الشارع واختطفته إلى بيت ريفي منعزل. وعندما أصبح أمر نقله جاهزاً حقن بمادة مخدرة. وأثناء غيابه عن الوعي هرّب على ظهر سفينة مبحرة إلى روسيا.

وحتى شهر آب (أغسطس) سنة 1959 كانت إيلين قد دبرت عمليات قتل واختطاف كثيرة فشكلت بذلك خطراً على جماعتها وأقلقت موسكو. فأرسل عميل لمراقبة نشاطاتها وللإبلاغ عنها.

أطاعت إيلين أوامر موسكو ولكنها تابعت عمليات الابتزاز بالتهديد والعنف في سبيل تجنيد المخبرين. ولم تتدخل موسكو بالأمر، فقد كانت المعلومات التي تتلقاها منها بالغة الأهمية.

وظلت إيلين تعمل كبائعة في متجر للبياضات حتى شهر تموز (يوليو) عام 1959. وقد جعل توسع أعمالها وقتها ضيقاً. ففضلت العمل لحسابها، وهكذا اشترت متجراً مماثلاً. وحرصت على عدم استعماله كمركز للقاءاتها مع المخبرين والعملاء. وعند حلول الميلاد أخذت حياتها وجهاً غريباً. فقد دخل محلها شاب وسيم، يطلب شراء هدية لأمه. فأحب إيلين وواعدها. وللمرة الأولى في حياتها المهنية سمحت إيلين لنفسها بالتورط عاطفياً مع أي إنسان. ولكن في شهر كانون الثاني (يناير) 1960 اكتشفت إيلين أن حبيبها شرطي رسمي، فأبلغت موسكو بذلك، وتلقت تعليمات بمتابعة صداقتها ومحاولة معرفة مدى اطلاع السلطات الكندية على التجسس السوفياتي. وأبلغتها قيادة دائرة الاستخبارات السوفياتية بوجوب قبولها لطلب الموظف الرسمي بالزواج منها.

السوفياتي الهارب

واستقت إيلين إخبارية مفيدة من حبيبها تتعلق بإيغور غوزينكو وهو محلل الشيفرة في السفارة السوفياتية، شارع شارلوت في اوتاوا، الذي كان قد قرر اللجوء إلى الكنديين. وحينما قرر إيغور غوزينكو طلب اللجوء السياسي إلى كندا، كان على أتم استعداد لقطيعته مع

السوفيات. فقد حرر قائمة بعدد كبير من الوثائق التي تورد دزينة من الدبلوماسيين السوفيات الذي يستخدمون في حقول أبعد ما تكون عن الديبلوماسية. ومهما يكن من أمر فقد كان من المهم ألا تخونه ملفات السفارة ذات السرية القصوى والتي كان في حاجة إليها، إذا ما قام أي عميل سري بإجراء تدقيق سريع عليها. ولذا فقد ترك المستندات في ملفاتها وجعل حرفها مقلوباً إلى أسفل بحيث يسهل عليها حصرها عند حاجته إليها.

وخلال الساعات المبكرة من مساء الخامس من أيلول (سبتمبر) قرر غوزينكو أن ساعة الصفر بالنسبة إليه قد أزفت، فترك السفارة وقصد مباشرة مكتب رئيس تحرير إحدى الصحف حاملاً في جيوبه مستندات كافية لزج دزينة من الجواسيس وراء القضبان. ولكن رئيس التحرير اعتقد أن تلك المستندات مزورة. فرؤساء التحرير غالباً ما يتلقون قصصاً جديدة مختلقة يطمع أصحابها بقبض مبالغ خيالية حيالها. وهكذا خرج غوزينكو مطروداً.

تهدمت آمال غوزينكو، فالعملاء السوفيات في أوتاوا ربما يبحثون عنه. وتحت وطأة الهلع قصد مكاتب رسمية كندية مختلفة وأبلغ العديد من الرسميين عن رغبته في اللجوء إلى الغرب، ولكن لم يصدقه أحد. فقد اعتبر مخبولاً، وأيدت تصرفاته المتزايدة العصبية واضطرابه هذا الاعتقاد. ولكن السفارة السوفياتية ساعدته دون قصد منها. فقد كان غيابه غير المبرر بمثابة إنذار لرئيس ضباط الأمن في السفارة لاتخاذ الاحتياطات الطارئة. فخلع مجهولون باب شقة غوزينكو وبعثروا محتوياتها. وهكذا طلب البوليس الكندي إلى مسرح الحادث، فأجرى تحقيقاً مع غوزينكو ووضعه تحت الحجز الوقائي.

ورفضت السلطات الكندية بعد ذلك طلبات السفارة السوفياتية بتسليم غوزينكو وأعطته حق اللجوء السياسي. وتبين بعد ذلك أن مكافحة الجاسوسية الغربية أرادت إبقاء حقيقة إدارة السفارة السوفياتية لشبكة التجسس في طي الكتمان، كما لو أن غوزينكو لم يفه بحرف.

أين اختفت

وسخرت إيلين من حبيبها عندما أخبرها بهذه القصة. واتقنت التمثيل عندما رفضت التصديق بأنه كان على مكافحة الجاسوسية الكندية أن تعتمد على وشاية «مرتد» سوفياتي لكي تستطيع كشف جواسيس روس. ولكن على إيلين أن تبلغ موسكو بأن خطيبها «ليس على علم بشيء أو أنه شديد الحذر» بالنسبة إلى كشف الطرق التي تعتمدها مكافحة الجاسوسية في الغرب.

وتابعت إيلين نشاطاتها التجسسية، إلى أن قرر مقر قيادة دائرة الاستخبارات في موسكو تغيير مسرح عملياتها. فتلقت أوامر بمغادرة كندا. وأسعفتها «الشعبة الثالثة» برسائل «حقيقية» من إنكلترا تفيد بأن عمها مريض وبحالة خطرة، فكانت قصتها معقولة بشكل جعل خطيبها نفسه يلح عليها بالسفر دون إبطاء.

ففي أي من البلدان الناطقة بالإنكليزية تسلمت تانيا ماركوفنا راديونسكا جنسيتها الجديدة؟.

إنه أمر ما زال مجهولاً حتى الآن.

تيشلي دوفيس(*)
(Tychli Dovis)
(1917 - 1870)

قليلات هنّ النساء الفرنسيات اللواتي اشتغلن لحساب العدو في الحرب العالمية الأولى. وقد كن جميعهن من ذوات الماضي المشبوه والصفحات السود.

ومن هاتيك النسوة، تيشلي ابنة دوفيس التي أعدمت بالرصاص في فانسين في الخامس عشر من آذار (مارس) 1917، والتي تعد أنموذجاً لأنواع الجاسوسات اللواتي استخدمهن الألمان في فرنسا.

ولدت تيشلي في باريس سنة 1870 واشتغلت خادمة ابتداء من العام 1896 في فرنسا ثم في بلجيكا ففي ألمانيا. وفي السنة 1910 استخدمت في فندق ميريس. وكانت ممتلئة الجسم، عليها مسحة من جمال، مجتهدة في العمل، متكالبة على المادة، تجيد الإنكليزية والألمانية.

لمّا عادت تيشلي إلى باريس اتخذها الكابتين فينانكي عشيق آن ماري ليسر التي عرفها القارىء في الفصول السابقة، خادماً له في

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات» ص123 ـ 124.

منزله. وهو الذي نصح لها بالسفر إلى مايانس والاشتغال في فندق هولندا وأغراها بأنها ستربح هناك مالاً وفيراً، وتبرع لها بنفقة السفر.

ودخلت إلى الفندق الألماني واشتغلت فيه. ولم تمض أيام معدودة حتى جاءها ضابط من مركز التجسس الألماني في لوراش وعرض عليها أن تشتغل لحساب الدائرة السرية الألمانية فقبلت. ودربت على نبش أمتعة المسافرين وحقائبهم بدون أن تترك أثراً ينم على فعلتها، كما دربت على أساليب جمع الأخبار المفيدة الهامة ونقلها.

وأصبحت المرأة بعد إعلان الحرب في آب (أغسطس) 1914 تعرف بالجاسوسة «زود رقم 160» وأقامت في سويسرا. ثم عادت إلى فرنسا حيث ظلت طوال عشرين شهراً تتسقط الأخبار وتنبش الأسرار وتنقلها إلى أسيادها بطريق سويسرا.

وكان للجاسوسة تيشلي ابن مجند في إحدى فرق المشاة الفرنسية. فدأبت في رسائلها إليه على سؤاله عن موقع معسكره فيجيبها، فتنقل الخبر إلى الألمان.

ولعل هذه الظاهرة الغريبة تصور لنا نفس هذه المرأة وشعورها الميت أصدق صورة. وليس عجيباً في أم لا تخاف أن يذهب ولدها ضحية خيانتها، أن ترتكب أبشع المنكرات.

وحين شدت تيشلي إلى عمود الإعدام صاحت محتجة:

«إنني لم أقتل لأقتل، ومن الظلم أن تقتلوني! ولا سفكت دماً فحرام عليكم سفك دمي! وما اعتاد الناس إعدام النساء!».

على أنها تقبلت الموت بشجاعة وأبت أن تعصب عينيها.

حرف الجيم

1 ـ جابرييل جاست.

2 ـ جانيت شيشولم.

3 ـ جوزفين بيكر.

4 ـ جوزفينا كيرورو.

5 ـ جولي سيرز.

6 ـ جيرترود بيل.

7 ـ جين هورني.

جابرييل جاست(*)

(Gabrielle Jast)

(1943 -)

هي إحدى أعضاء شبكات الجاسوسية الألمانية لمصلحة مخابرات ألمانيا الشرقية.

إذ في نهاية عام 1991 أصدرت المحكمة الألمانية العليا في ميونيخ عاصمة إقليم بافاريا الحكم بسجن الجاسوسة الألمانية الحسناء جابرييل جاست (48) عاماً لمدة ستة أعوام وتسعة أشهر عقوبة على قيامها بالتجسس طوال عشرين عاماً لحساب أجهزة المخابرات في القطاع الشرقي السابق لألمانيا. وكان المدعي العام في محكمة بافاريا العليا في ميونيخ قد طالب بسجنها ثمانية أعوام غير أن القضاة خفضوا الحكم بسبب قناعاتهم بالدوافع العاطفية التي قادتها إلى الوقوع في شباك التجسس. كما أصدرت نفس المحكمة حكماً بالسجن ثمانية عشر شهراً مع إيقاف التنفيذ على عشيقها الضابط السابق في جهاز المخابرات الألماني (الشرقي) كارل هينز شنايدر، ومراعاة الظروف والدوافع التي وظفت فيها مشاعرها

(*) المرجع: سعيد الجزائري «ملف التسعينات عن أعمال المخابرات». الجزء الثاني. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى 1997. ص531 - 533.

لحساب عمليات جمع المعلومات السرية طوال العقدين الماضيين.

وكانت الجاسوسة الألمانية الحسناء جابرييل جاست قد زودت المخابرات الألمانية الشرقية (سابقاً) بكمّ هائل من الوثائق السرية، ونسخ من التقارير اليومية الاستخبارية التي كانت تقوم بإعدادها لمكتبي المستشارين الألمانيين هيلموت شميدت وهيلموت كول منذ أن تم تجنيدها على يدي ضابط المخابرات الألماني الشرقي كارل هينز شنايدر في عام 1968. وعقب انتقالها للعمل في دائرة مكافحة الجاسوسية السوفياتية، وأنشطة التخريب في جهاز المخابرات الألمانية (الغربية) في عام 1973 وما أتاح ذلك من توفر المزيد من الأسرار والوثائق الخطيرة، والمعلومات المحظورة والغاية في السرية، ارتقت إلى تولي منصب نائب مدير هذه الدائرة، وأصبحت صيداً ثميناً يسعى العديد من أجهزة المخابرات الشرقية للوصول إليها بأي ثمن، حيث دفع في طريقها ضابط المخابرات الألماني الشرقي كارل هينز شنايدر الذي نجح في الإيقاع بها واستغلال سهولة قيادتها. وعن طريق لمس مشاعرها والعزف على إيقاعات عواطفها المتأججة وضعف نوازعها بحثاً عن الرجل المناسب الذي لم يكن سوى الثعلب الماكر كارل شنايدر.

ورغم ما أثارته فضيحة اكتشاف تجسس الحسناء الألمانية جابرييل جاست من هزة عنيفة في الأوساط الحكومية والأمنية الألمانية الغربية في قمة سنوات الحرب الباردة، فإن المأزق الدستوري الذي أصبحت تواجهه الدوائر القضائية في ألمانيا بعد التوحيد مراجعة الاتهامات الموجهة إلى من أسهموا في ممارسة أنشطة التجسس في كلا القطاعين قد أصبح يفرض رؤيا مغايرة بعد تغير مواقف السياسيين الألمان في القطاعين منذ انهيار النظام الشيوعي في ألمانيا الشرقية،

وإزالة جدار برلين والمضي السريع في عمليات التوحيد، ومواجهة حالات المئات من الضباط العاملين في السابق في أجهزة المخابرات الألمانية الشرقية، ومحاولة إيجاد إجابات حاسمة للموقف من محاكمتهم طبقاً لقوانين مكافحة التجسس في القطاع الغربي السابق أو إسقاط التهم الموجهة إليهم، ومنذ أن أصبحوا مواطنين في دولة واحدة!.

ويعتقد الكثير من رجال القضاء الألمان والمحامين أن الظروف الراهنة قد أصبحت تتطلب مراجعة شاملة لمواقف الجواسيس السابقين، وإسقاط أي اتهامات موجهة إليهم من أجل تضميد جراح الماضي وإسدال الستار على ما شهده القطاعان الشرقي والغربي من ممارسات وآلام لحقت بالآلاف من المواطنين الألمان.

وإلى أن تجد الدوائر القضائية والأمنية الألمانية ردودها الحاسمة على المأزق الدستوري الذي واجهته، وباستمرار النظر في قضايا الجواسيس فمن المعتقد أن كثيراً من هؤلاء خاصة المحكوم عليهم سوف يتقدمون بطعون عن صحة هذه الأحكام الأمر الذي يحتمل معه إسقاط عقوبات هؤلاء ومن بينهم الجاسوسة الحسناء جابرييل جاست وعشيقها السابق كارل هينز شنايدر، وكبير جواسيس القطاع الشرقي السابق ماركوس وولف الذي يواجه هو الآخر مجموعة من الاتهامات أمام الدوائر القضائية الألمانية.

جانيت شيشولم(*)

(Janette Chicholm)

(2004 - 1940)

هي جاسوسة بريطانية في هيئة الأركان السوفياتية.

إذ في العمل التجسسي يصبح كل فرد مهما كانت طبيعته قابلاً للتوظيف والقيام بمهمة محددة، هذه هي القاعدة خصوصاً في المخابرات البريطانية والأميركية.. والتجسس يشبه أحياناً القمار في نتائجه لأنه قد يوفر خطوات تقليدية روتينية كثيرة في طريق تحقيق الهدف على غرار تحول الفقير غنياً بلحظة واحدة إذا ما ربح في لعبة قمار بعد المراهنة بمبلغ نقدي كبير.

ولا ينتهي التجسس إلا بانتهاء الحياة وتبددها من على وجه الأرض.

مثلما تتطور الأسلحة ووسائط القتال تتعرض وسائل التجسس في العالم للتطور والابتكار من ناحية استخدام المهارات البشرية والوسائل التكنولوجية. لكن الفرد الإنسان يبقى في هذه العملية الصعبة، والمعقدة غالباً والتي تبدو سهلة أحياناً هو الركن الأساسي

(*) **المرجع**: المحرر العدد (461) 21 ـ 27 آب (أغسطس) 2004.

فيها وفي عملية جمع المعلومات أو التأثير في القرارات حين يكون في موقع القرار، ويعمل في الوقت نفسه لصالح الأعداء والخصوم.

وفي عالم الجاسوسية الغربي كانت أجهزة المخابرات تحرص على تجنب زجّ الزوجة إذا كان الزوج يعمل تحت غطاء ديبلوماسي في بلد آخر بالعمل التجسسي نفسه لأسباب كثيرة فنية وغير فنية. ومع ذلك، شهدت الحرب العالمية الثانية وجود عدد كبير من النساء في النشاط التجسسي من دون أن يكونوا أزواجاً لديبلوماسيين أو لجواسيس محترفين.

جواسيس بصفة ديبلوماسية

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية الحرب الباردة بين دول الكتلة الشيوعية بقيادة موسكو ودول الغرب بقيادة واشنطن وجدت المخابرات البريطانية والأميركية أن مهمة التجسس على الاتحاد السوفياتي لا ينبغي أن تعترضها أية محاذير أو عقبات أو اعتبارات. ولذلك كان من الطبيعي أن توظف مخابرات الغرب كل ما أمكن من وسائل ناجحة للتجسس على موسكو وقيادتها العسكرية بشكل خاص.

ولهذا الغرض أرسلت المخابرات البريطانية في بداية الستينات الجاسوس رواري شيشولم للعمل في السفارة البريطانية في موسكو تحت غطاء ديبلوماسي بوظيفة ضابط قسم تأشيرات السفر لكي يصبح صلة الارتباط بجاسوس روسي يعمل في إدارة المخابرات العسكرية التابعة لهيئة الأركان السوفياتية هو العقيد أوليغ بينكوفيسكي. وكانت صحيفة «ديلي تليغراف» البريطانية قد ذكرت في 6/ 8/ 2004 بمناسبة وفاة زوجة شيشولم الجاسوسة التي تولت مهمة نقل رسائل بينكوفيسكي من داخل موسكو أن بينكوفيسكي عرض في الخمسينات

خدماته التجسسية لأول مرة على السي. آي. إي التي تجنبته بسبب خوفها من أن يكون جاسوساً مزدوجاً ومعداً من «الكي. جي. بي» (المخابرات السوفياتية). وفي أعقاب هذا الفشل توجه بينكوفيسكي نحو رجل أعمال كندي من أجل ترتيب توظيفه في خدمة المخابرات الكندية فلم يفلح في نيل ثقة المخابرات الكندية التي فضلت عدم المجازفة. وفي النهاية، نجحت طريقة بينكوفيسكي المحفوفة بالمخاطر مع غريفيل واين رجل الأعمال البريطاني الذي كان يعمل بدرجة رفيعة المستوى في جهاز (أم16) التجسسي البريطاني الشهير.

وحين تم اعتماد بينكوفيسكي جاسوساً يقدم المعلومات للبريطانيين تعين على جهاز (أم16) ترتيب طريقة مناسبة ومباشرة لاستلام المعلومات منه ونقلها عبر السفارة البريطانية في موسكو إلى المخابرات البريطانية. ولهذا الغرض جرى اختيار رواري شيشولم الخبير بالعمل التجسسي وزوجته جانيت التي كانت تعمل وهي في سن العشرين مع المخابرات وأنهت دورة تعليم للغة الروسية. كان العقيد بينكوفيسكي صيداً ثميناً وفريداً لأنه هو من بادر إلى عرض خدماته وكان موقعه في إدارة المخابرات العسكرية عام 1960 يعد أكبر كنز للمعلومات المطلوبة لبريطانيا وللولايات المتحدة التي ساهمت وكالة مخابراتها المركزية بتزكيته للعمل بعد أن تجنبته في البداية. واعتبرت جانيت الشابة الجميلة مناسبة وتستطيع التغلب على صعوبات التجول والسير في أحياء موسكو وحدائقها ومطاعمها طالما أنها تتقن الروسية، ولا توجد لها أي صفة داخل سفارة بريطانيا تثير الشكوك سوى أنها زوجة موظف ديبلوماسي لتأشيرات السفر رغم أن زوجها كان رئيساً لمحطة التجسس البريطانية في موسكو وليس مجرد موظف بسيط داخل السفارة.

ترتيب لقاءات الصدفة بعيداً عن العيون الروسية

وكان اللقاء الأول لجانيت مع العقيد بينكوفيسكي وهي في سن التاسعة والعشرين في إحدى الحدائق العامة القريبة من تجمع منازل الديبلوماسيين الأجانب في شارع (تسفيتنوي بوليفار) في موسكو. وكان زوجها رواري قد زودها بصورة فوتوغرافية واضحة المعالم لبينكوفسكي لكي تتعرف عليه بالذات، وقيل له إن سيدة يرافقها طفلان أحدهما داخل عربة الأطفال بانتظاره، وسوف تبعث له بإشارة محددة لكي يتعرف عليها ويطمئن خصوصاً وأنها تتحدث الروسية وهو لا يتحدث الإنكليزية. وحين تعرف الإثنان على هوية بعضهما تقدم هو نحوها بأسلوب يوحي بالصدفة وجلس قرب مقعد الحديقة ليضع في عربة الطفل رزمة صغيرة من سكاكر الأطفال وفي داخلها «مايكروفيلم» مينوكس يضم معلومات جمعها بحكم عمله واختصاصه تتعلق بالأسلحة النووية السوفياتية.

وتكررت هذه اللقاءات بين أوقات متباعدة وفي أماكن مختلفة وبوسائل «الصدفة المتنوعة» خلال سنة كاملة كان العقيد السوفياتي أثناءها يزود المخابرات البريطانية بالمعلومات على طريقته. أما الطريقة التي كان يبتكرها مع زوج جانيت في الالتقاء بها لنقل المعلومات فكانت تتمثل في اتصال بينكوفيسكي برقم خاص لا يمكن تعقبه ويستمع لعدد محدد من الصوت الصادر عن «رنينه» دون أن تُرفع سماعه الهاتف من قبل البريطانيين. وبعد ذلك يتحدد موعد للقاء خالٍ من أي استلام للمعلومات، لكي يتسنى تحديد موعد آخر وبأسلوب «الصدفة» لاستلام المعلومات. وكانت اللقاءات تجري أحياناً في قاعة لتدريس رقص الباليه أو في مطعم يحمل اسم «براغا» حيث كان بينكوفيسكي يترك قربه علبة سجائر وفي داخلها ميكروفيلم صغير ولا

يمكن لأحد تناولها إلا جانيت. وبعد عام من هذه الاتصالات واللقاءات تمكنت المخابرات السوفياتية من تتبع العقيد بينكوفيسكي ومراقبته من دون أن يدري.

انكشاف بينكوفيسكي وإعدامه وفرار جانيت وزوجها

وشعرت جانيت نفسها بعد عام من النجاح بأن المخابرات تتعقبها هي أيضاً. وفي إحدى المرات كان جون ميللير مراسل وكالة «رويترز» و «الديلي تيليغراف» في موسكو في ما بعد يرافق جانيت وأطفالها في سيارة ديبلوماسية بريطانية، ولاحظ الاثنان في ذلك العام (1961) أن ثلاث سيارات تتعقبهم من اتجاهات ثلاثة.

وبعد أشهر قليلة تمكن رجال الـ (كي.جي.بي) من تصوير بينكوفيسكي وهو يقترب بالصدفة المعدة سلفاً نحو جانيت واعتقلوه واستمرت محاكمته ستة أشهر. أما جانيت فقد فرّت وزوجها وأطفالها بشكل رسمي قبيل اعتقاله بعد أن تبين أن الضرورة تستدعي الفرار دون فضائح ومضاعفات.

وتذكر صحيفة «ديلي تيليغراف» (6/ 8/ 2004) أن بينكوفيسكي أدين بالتجسس وجرى إعدامه رمياً بالرصاص رغم انتشار قصة تحدثت عن حرقه حياً في مقبرة يجري فيها حرق جثث الأموات والاحتفاظ برمادهم. واعتقل واين رجل الأعمال البريطاني الذي جند بينكوفيسكي وقضت عليه محكمة أمن الدولة في موسكو بالسجن لفترة طويلة إلى أن تمت عملية تبادل مع بريطانيا أفرجت بموجبها بريطانيا عن جاسوس كندي تجسس لصالح موسكو من داخل لندن مقابل الجاسوس البريطاني واين الذي خرج من السجن منهاراً وعليلاً لا ينفع لشيء. أما جانيت فقد أرسلت هي وزوجها إلى سنغافورة ثم

عرج الزوجان إلى دار السلام في تانزانيا حيث أصيب رواري زوج جانيت بالملاريا ومات بعد أسابيع قليلة في سكوتلندا.

وتقاعدت جانيت عن العمل التجسسي الذي بدأته في ألمانيا ثم في سفارة بريطانيا في بودابست ثم في موسكو وسنغافورة. وفي 27 تموز/ يوليو 2004 ماتت جانيت من دون أن تتحدث علناً عن دورها في قضية تجسس بينكوفيسكي.

جوزيفين بيكر(*)

(Joséphine Baker)

(1975 - 1906)

جاسوسة فرنسية عملت ضد الألمان في الحرب العالمية الثانية.

وبفضل شهرتها الواسعة، لم تتردد بطلة «الاستعراض الزنجي» المعروف في الطوفان حول العالم من أجل جمع المعلومات وتسليمها للحلفاء. فمنذ مطلع الحرب العالمية الثانية، جنّدت الاستخبارات الفرنسية شخصيات قادرة على السفر عبر العالم لأسباب مهنية من دون إثارة الانتباه إليها. وهكذا أقنع مدير الأعمال دانيال مرواني، جوزيفين بيكر، التي اكتسبت الجنسية الفرنسية في العام 1938، بأن تصبح «مراسل المكتب الثاني المحترم». ومن التفاصيل المثيرة للضحك أن الضابط الذي كان مسؤولاً عنها وسكرتير النجمة رسمياً جاك آبني وضع على جواز سفره، وأمام كلمة المهنة، العبارة التالية: «مرافق السيدة جوزيفين بيكر».

بعد أن رفضت بيكر العمل في الملاهي التي كان يرتادها الضباط الألمان، غادرت باريس منذ مطلع الاحتلال والتجأت إلى

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية». ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998. ص244.

قصر ميلاند في منطقة دوردوني، لكنها لم تمكث هناك طويلاً. ولما كان يرافقها دوماً سكرتيرها المخلص الذي اتخذ اسم جان فرانسوا هيبير من أجل المهمة التي كُلِّفا بها، فقد اتجه الاثنان إلى جنوب غرب فرنسا من أجل جمع المعلومات الخاصة بالقوات الألمانية الكبيرة المتواجدة في المنطقة، قبل أن يقوما بجولة في البرتغال وإسبانيا. وفي العام 1943، وبعد أن انضمَّت إلى صف الجنرال ديغول، قامت المغنية بحملة دعائية واسعة في حوض المتوسط. ودامت صداقتها مع ديغول إلى ما بعد انتهاء الحرب بوقت طويل. ولا تزال تذكر إحدى صديقاتها المقرّبات إليها، في ربيع العام 1995، الزيارات العديدة التي كان الجنرال ديغول يقوم بها إلى قصر ميلاند، ذلك المكان الذي حاولت فيه جوزيفين بيكر إقامة «قرية أطفال العالم». هذا وقد رُقِّيت بيكر إلى رتبة ملازم في سلاح الجو الفرنسي وقُلِّدت وسام المقاومة عند تحرير فرنسا، ثم وسام جوقة الشرف في العام 1961.

جوزيفينا كيرورو(*)
(Joséphyna Kiroro)
(1918 -)

هي إحدى عميلات المخابرات الأميركية (من أصول فيليبينية) ضلّلت اليابانيين مدّة ليست بالقصيرة وساهمت في النصر الأميركي عليهم.

ولعل النصر الأميركي في الفيليبين، في الحرب العالمية الثانية، إنما يرجع إلى حدّ ما إلى مغامرات فيليبينية تدعى جوزيفينا كيرورو. لقد أوتيت هذه الفتاة ذكاء وشجاعة نادرين، فراحت تخاطر بحياتها لتجمع المعلومات عن التحركات العسكرية اليابانية، ثم تنقلها إلى القوات الأميركية. وكان هؤلاء يطلقون عليها اسم «جوي» تحبباً؛ وقد منحتها الولايات المتحدة أرفع مكافأة تمنح لمدني من أجل خدماته الحربية ـ ميدالية الحرية؛ كما منحها الكردينال سپلمان قلادة رفيعة، إقراراً بعزيمتها الدينية، وتضحيتها من أجل الآخرين.

لقد أرادت جوزيفينا في صغرها أن تكون راهبة؛ ولكن إصابتها بالسل حالت دون ذلك. ثم توفي والداها، فأخذتها جدتها إلى إحدى

(*) المرجع: مدحت الجادر «غزاة في الظلام». مكتبة النهضة، بغداد. الطبعة الأولى 1987. ص63 ـ 71.

مزارع جوز الهند، وهناك استردت عافيتها. وأقامت بعد ذلك مع عمها في مانيلا، وهنا أحبها الطبيب الشاب رينا توماريا كيرورو فتزوجها، وبدا لهما مستقبل مشرق. ولكن جوي بدأت في شتاء 1941 تفقد القوة والشهية، وتظهر عليها الأورام. فقلق زوجها وعرضها على أخصائي، فأنبأها هذا بأنها مصابة بالجذام! ولكنه أضاف: «إنه لم يزل في مرحلة أولية... وأنت شابة في الثالثة والعشرين... ثم هناك طرق للعلاج تبشر بالشفاء. ولكن الأطفال شديدو التعرض لعدوى هذا المرض، فينبغي أن تبتعدي عن طفلتك!».

وراحت تصلّي الساعات الطويلة، من أجل أن يمنحها الله الصبر والقوة على فراق ابنتها سنثيا وهي في الثانية من عمرها... وأنه لفراق عسير طويل! وحين عادت إلى البيت من عيادة الطبيب، وجدت ابنتها تلعب في غرفتها. فكان لها موقف كأنه الموت ـ فإن عليها أن تبعث بها إلى جدّتها دون أن تمنحها حتى قبلة الوداع!.

وكان المصابون بالجذام ملزمين، حين يسيرون في شوارع مانيلا، بأن يقرعوا جرساً، لكي يتحاشاهم الآخرون. ولكن الأطباء أعلموا الزوجين، أن هذا المرض ضعيف العدوى بين الكبار، وأن جوي ليست مصدر خطر على عابري السبيل.

وبدأ الزوجان ينظمان صراعهما مع المرض، ويوفران الراحة والعناية الطبية الشديدة. ولكن القدر حال دون ذلك. فبعد ثلاثة أسابيع وقع حادث پيرل هاربر؛ فاضطربت الأمور، وصار الجنود اليابانيون يتسكعون في شوارع مانيلا.

وفي ذات يوم، كانت جوي تسير مع زميلات لها، فاعترضهن

جنود يابانيون، وأبدوا رغبتهم الدنيئة. فما كان من جوي إلا أن انتقت أضخمهم، وراحت تهوي على رأسه بضربات شديدة بمظلتها، حتى لاذ هو ورفاقه بالفرار. وحين جنّ الليل، إذا بإحدى تلك الزميلات تتصل بها هاتفياً، وتقول لها: تعالي إلى منزلنا. ثم أغلقت الهاتف.

كان زوج تلك الزميلة في انتظارها. فقال لها على الفور: إن امرأة لها مثل روحك وشجاعتك خليقة بأن تنضم إلى المقاومة. إنك من النوع الذي نريده لخدمتنا السرية. ثم أخبرها بأن المقاومة الفيليبينية ـ مساهمة في إعداد الخطط لتحرير الجزر ـ ترسل المعلومات عن اليابانيين إلى ماك آرثر في استراليا. فهل تنضم إليهم؟ قالت جوي: إني لا أستطيع أن أقوم بعظائم الأمور، ولكن حتى القليل ينفع... حسناً، إني موافقة.

وأُعطيت هذه المهمة للاختبار: قالوا لها: إنك تسكنين بإزاء ثكنة يابانية، فنريد منك في خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة أن تحصي كم يابانياً يخرج ويدخل، وفي أي وقت، وإلى أي اتجاه. ونريد مثل هذا الإحصاء بالقياس إلى المركبات أيضاً.

وكمنت جوي وراء نافذة عليها ستار، وراحت تحصي كل شيء يمر وفي أي وقت. وجاءت حافلة مملوءة بالجنود، فلم تكتف بعدهم، بل لاحظت أن عليهم الأوساخ كما لو كانوا قادمين من الميدان. ثم حملت إلى العنوان الذي أعطي لها دفتراً مملوءاً بالملاحظات، وهناك وقعت على قسم بالمحافظة على السرّية، والتزام الولاء. وهكذا انسلكت فيما تسميه هي: «حربي الصامتة». وقد ظلت في هذه الحرب ثلاث سنين كفيلة بتحطيم أقوى الأعصاب!.

وكلفت بمراقبة السواحل؛ فاكتشفت عيناها الحادتان مدافع

يابانية مخفية ضد الطائرات. فرسمت مخططاً لمواقعها، وحملت سلة من الفاكهة أودعت المخطط في بطن إحداها، فأوقفها جندي ياباني، وجعل ينبش الفاكهة حتى انتقى بشره أكبرها؛ ومن حسن الحظ أن جوي كانت قد وضعت المخطط في ثمرة صغيرة. ولكن هذه التجربة كانت درساً لها؛ فمن بعد ذلك صارت تختزن الملاحظات في ذهنها، ثم تجعلها على الورق في منزلها.

وكانت من بين الفتيات اللواتي سمح لهن بجلب الطعام إلى السجناء الفيليبينيين والأميركيين. وكان هؤلاء يكادون يموتون جوعاً وخوفاً، فجعلت تقدم لهم الشجاعة والإيمان والطعام، وتتسلم منهم المعلومات التي كانوا يلتقطونها من أفواه الحراس الثرثارين! وفي ذات مرة هددها حارس شكّاك بالحربة، فجرّها من ضفيرتها إلى الخارج بعنف، ولكن الشريط الذي كان يربط الضفيرة بإحكام قد ثبت في مكانه منطوياً على تقرير من أحد السجناء!.

وفي أيلول (سبتمبر) 1944 كان الأميركيون المتقدمون يقصفون مانيلا، فيدمرون مواقع الدفاع التي زودتهم بها جوي. فنشطت الشرطة اليابانية المقاومة للجاسوسية، وبثت عيونها في كل مكان؛ فقبض على العديد من أفراد المقاومة، فعذب من عذب، وقتل من قتل.

وفي هذا الوقت، كان مكتب استخبارات الحلفاء هو الذي يتولى توجيه عمليات المقاومة السرية. وكان من بين العاملين فيه الكابتن مانويل كوليكو، الأستاذ بجامعة سانتو توماس سابقاً. وعلى أثر نداء هاتفي سرّي، تم اللقاء بينه وبين جوي. وسألها:

ـ هل تقبلين الالتحاق بمكتبنا؟ أنا أعلم أن هذا قد يعني التفريط في حياتك، ولكن. . .

ـ ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

فأخبرها بأن عليها أن تنتظر حافلة بإحدى ضواحي المدينة، وفي وقت معين؛ وأن تخفي في تجويف داخل حذائها الخشبي أوراقاً تتضمن معلومات حصلت عليها المقاومة، حول الاستعدادات اليابانية للدفاع عن مانيلا.

وحملتها تلك الحافلة خمسين ميلاً في طرق وعرة خلفية حتى جبل ناكسكارلان. ومن هناك اقتادهم مرشد في طريق ضيق حتى بلغوا صخرة في وسطه. وجاءهم صوت من مكان مجهول يسأل عن هويتهم؛ فذكرت جوي كلمة السر. فانبثق من شجرة فوقهم ضوء قوي ثم اختفى. هنالك دحرج المرشد الصخرة إلى جانب، وتقدمت الحافلة حتى بلغت فسحة فيها ثكنات من أوراق الشجر، يقيم فيها حوالي المائة من رجال المقاومة. ووقفت جوي تتفرج عليهم، وهم يعدون جهازاً لاسلكياً، فيرسلون المعلومات التي أوصلتها إليهم.

وهكذا صارت ساعية، تسلك الطرق المختلفة، لتحمل إلى مكمن رجال المقاومة، التقارير والخرائط والتصاوير. وفي هذا المكمن، سمعت لأول مرة، أن الأميركيين ينزلون في ليوزون.

وطفق رجال المقاومة يطبعون النشرات ـ يطلبون فيها المساعدة، ويبشرون بقرب التحرير. وراحت جوي تهبط بهذه النشرات إلى مانيلا. فإذا جنّ الليل، انضمت إلى متطوعات أخريات؛ فرحن يدسسن تلك النشرات تحت الأبواب، أو في أيدي المارين.

وفي ذات ليلة سمعت إشارة معينة لدى الباب؛ فأدخلت رجلاً في بدلة عسكرية يابانية! ودفع إليها هذا الرجل كيساً من الفواكه، ثم

قال هامساً: هذا شيء للدكتور ليريرو. وتسلم منها زوجها ـ وكان من رجال المقاومة ـ ذلك الكيس دون أن يفوه بشيء. ومن بعد ذلك، تتابعت الليالي التي كانت فيها أكداس العتاد اليابانية، ترعد بالانفجارات. وفي النهار كانت مهمة جوي، البحث عن أكداس يابانية جديدة، لتطعمها بتلك الفواكه!.

وبعد فترة قصيرة، طلب إليها كوليكو أن تعمل ساعية كرّة أخرى. فانطلقت إلى الجبل، وكانت تأمل أن يساعد الجو هناك على تجديد قواها: ولكن قلة الطعام والدواء، زادتها رَهَقاً وداء. ثم لازمها الصداع، وتورمت قدماها، وتفشت القروح في جسمها: فجعلت تصلي من أجل الشفاء والتحرير.

وفي أوائل 1945 كان الأميركيون يقتربون من مانيلا؛ فاستدعى كوليكو «جوي» لكي تقوم بأخطر مهمة قامت بها على الإطلاق. لقد أرسلت المقاومة إلى الجيش الأميركي خارطة تبين مواقع الدفاعات اليابانية، وفي تلك الخارطة تظهر مساحة شاسعة خالية من الألغام. فقرر الأميركيون وضع الخطط للقيام بهجوم من تلك الناحية؛ ولكن اليابانيين زادوا في نشر الألغام بشكل مكثف في جميع أنحاء المنطقة. وعلى ذلك فإن المقاومة تحتاج إلى شخص ليحمل خارطة مصححة إلى مقر الفرقة السابعة والثلاثين في كالمبت الواقعة على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال من مانيلا. وكانت هناك معارك تدور على طول هذا الطريق؛ واليابانيون يحرسون كل سبيل عريض لوسائل النقل، وكل درب ضيق للسير على الأقدام. ولكن من المحتمل لفتاة صغيرة الحجم، رثة الهيئة، عظيمة الجرأة، تسعى على قدميها... من المحتمل لمثل هذه الفتاة أن تفلح في المحاولة. فسأل كوليكو:

ـ هل تقومين بهذه المهمة يا جوي؟

ـ قل لي فقط أين أذهب؟!.

وسارت أولاً آناء الليل، تحت جنح الظلام؛ ولكن فقدان النوم زاد في ضعفها، وشدّد صداعها؛ فحاولت السير أطراف النهار، وفي اليوم الأول أوقفها ضابط ياباني، فاقترب كأنه يريد تفتيشها. فشعرت جوي بالخارطة المخفية بين لوحي كتفيها كأنها تلتهب التهاباً! وتفرّس الضابط في وجهها فرآه منتفخاً تملؤه بقع حمراء، فاستولى عليه الذعر مخافة المرض الخبيث، فأزاحها من أمامه. فأدركت جوي بغتة، أنها تحمل جوازاً فظيعاً للمرور دون أن تدري!

وبعد مسيرة يومين كاملين وصلت إلى مقر الفرقة الأميركية، فسلمت الخارطة. ولكنها لم تستطع من أثر المرض والإعياء والقلق، أن تصيب شيئاً من (الكيك) والقهوة اللذين قدما لها، مع أنها لم تذقهما منذ سنين! وفي طريق العودة وجدت نفسها وسط معركة شديدة؛ فاختبأت وراء دبابة أميركية، ولكن هذه انفجرت وكادت تقتلها. وأخيراً وصلت مانيلا محطّمة، لتتلقى النبأ الفاجع: أن كوليكو قد أصيب بجراح خطيرة، في خلال الأيام الأخيرة من تلك المعركة. فأسرعت إلى المستشفى، فوجدته يلفظ أنفاسه الأخيرة. وكل ما استطاع أن يقوله تحية لها: لقد أتيت عملاً رائعاً!.

وتحولت جوي إلى التمريض في أحد المستشفيات. ولكن مرضها الذي زاده الإرهاق شدة، قد بلغ درجة من الخطورة بحيث طلب إليها المشرفون على المستشفى أن تذهب إلى (تالا) ـ مصح الحكومة الفيلبينية للمجذومين ـ. ووجدت جوي هذا المصحّ مجموعة من الأكواخ المهترئة الناضحة في وسط برّية! كان فيه القليل من

الطعام؛ أما العناية الطبية فمفقودة. وكان العديد من المرضى ينامون على الأرض التي يدوسونها بأقدامهم المتقرّحة. وخلاصة القول أن هذا المكان لم يكن مصحاً، بل مزبلة لعظام الموتى!.

وفي شباط (فبراير) 1947 إنهال على المصح ستمائة مريض جديد؛ فلم تعد جوي تطيق الوضع. فراحت تحاول أن تقر في المكان النظام، وأن تدخل إليه الوسائل الصحية؛ فتوجهت بطلب المساعدة إلى أورورا كيزون ابنة الرئيس السابق للفيليبين؛ وظهر في إحدى صحف مانيلا عرض لأوضاع المصح السيئة، فأتى ذلك كله بنتائج حسنة: بنايات جديدة، مختبر، غرفة للعمليات، المزيد من الأطباء والممرضات، وفوق ذلك أدوية حديثة بعثت الأمل في نفوس المرضى.

ثم جاء دورها في معالجة نفسها: فأدخلتها الحكومة الأميركية مستشفى كارفيل في لويزيانا، وتلقاها نزلاء المستشفى بباقات الزهور وكعكة عيد الميلاد. كانت آنئذ امرأة صغيرة الحجم، ذات وجه أسمر، شاحب مملوء بالندبات؛ ولكن عينيها تشعان بالحياة والابتسام.

وتولى علاجها الطبيب الشهير فردريك جوهانسن بأحدث ما اكتشف في هذا المجال؛ فاستردت العافية، وعاد إلى وجهها صفاؤه وإشراقه.

وتوافد عليها الزوار من شتى طبقات المجتمع، فكانت تستقبلهم بالبشاشة والحرارة، وتقول: إن قلبي مفعم بالسعادة. بيد أن أسعد لحظاتها في هذا المستشفى هي التي وقف فيها الأطباء أمام سريرها، وهم يقولون لها:

ـ جوي. . . إنك الآن تستطيعين أن تعودي إلى الوطن، وأن تحتضني طفلتك!.

وعادت جوي إلى الوطن لتخوض حرباً جديدة ضد الجذام؛ ولتدخل البهجة في نفوس المرضى به، وتحيطهم بالعناية والرأفة.

جولي سيرز(*)

(Joly Syrz)

(-   )

هي جاسوسة أميركية خبيرة، حيث يقول غيل شيهي في مجلة «سان أنتونيو كارانت» (1/ 4/ 2004) إن مهمة اعتقال أسامة بن لادن منذ انتقاله من السودان إلى أفغانستان كانت سهلة وصغيرة لكن الوقت أصبح متأخراً بعد تلك الفترة. وتكشف جولي سيرز الأميركية التي تعمل الآن بوظيفة محلل عسكري في وكالة المخابرات العسكرية (دي. آي. إي) أنها كانت أول ضابط مخابرات يكتب تقريراً عن أهمية تحرك بن لادن من السودان إلى أفغانستان وضرورة اعتقاله بعد ذلك لكن أحداً لم يصغ إليها قبل خمس سنوات.

وقصة سيرز تتشابك فيها غايات سياسية ومشاحنات داخلية أضاعت أهمية جمع معلومات كانت تقود إلى معرفة ما جرى في 11 أيلول. وتقول سيرز: «لقد أصبح العثور على بن لادن الآن انتصاراً رمزياً للولايات المتحدة، في حين أن قدرته على خداعنا طوال هذه المدة ما كان ينبغي أن يستمر. لكن هذا الدور أصبح بأيدي آخرين في الولايات المتحدة. ولو لم يحدث ذلك لواجهنا منظمة القاعدة دون وجود بن لادن».

(*) المرجع: المحرر العدد (442) 10 ـ 16 نيسان/ أبريل 2004.

ويكشف شيهي أن سيرز «حذرت قبل خمس سنوات [1999] من خطر زعيم آخر للمجموعات الإسلامية المتشددة هو أيمن الظواهري الذي أصبح الناطق الرسمي باسم بن لادن وكان من الممكن اعتقاله في ذلك الوقت».

فمنذ عام 1993 أصبح الإثنان من أبرز قادة هذه المجموعات، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1997 أصدرا بياناً أعلنا فيه جهادهما. وبعد شهر تماماً قامت جولي سيرز التي أخفت شعرها الأحمر الغامق تحت «باروكة» شعر نسائي أخرى بالتوجه نحو أفغانستان في مهمة استطلاعية مخابراتية هي الأولى بالنسبة لها في تلك المنطقة. وقبل انشغالها بالعمل المخابراتي كانت جولي مهتمة جداً بأفغانستان أثناء دراستها في المدرسة الثانوية في فيرجينيا بيتش وجمعت كتباً حول الحرب الدائرة هناك ضد السوفيات. وبعد ذلك تخرجت من مدرسة جورج تاون للمهام الخارجية في عام 1992 حين أصبحت أفغانستان بأيدي المجاهدين. وكانت جولي قد تعلمت اللهجات الأفغانية واللغة الباكستانية والفارسية والباشتو. ثم تعاقدت معها وكالة المخابرات العسكرية (دي.أي.إي) بصفة محلل عسكري ونالت تقديراً عالياً من مسؤولها جي ساوندرز. وفي عام 1996 تمكنت جولي من تتبع بن لادن عندما غادر السودان واتجه نحو أفغانستان وأعدت تقريراً وتقييماً كان أهم ما توصلت إليه في مختلف مهامها.

التسلل إلى أفغانستان

وفي تشرين الأول (أكتوبر) عام 1997 انطلقت جولي بعد أن ارتدت ثياب امرأة أفغانية وتسللت من حدود باكستان إلى المنطقة

الأفغانية بصحبة أستاذها الأفغاني الذي علمها لغة الباشتو بحجة أنه يرغب بزيارة أسرته هناك. وبقيت أسبوعاً خارج كابول العاصمة.

وتقول جولي إن الإدارة الأميركية تأكدت من هوية الذين نفذوا ـ بعد عام من زيارتها السرية إلى أفغانستان ـ تفجيرات ضد سفارتين أميركيتين في أفريقيا، وقتل بسببها 259 فرداً وجرح ما يقرب من 3000 وأنهم كانوا من منظمة «القاعدة». ويقول شيهي أن جورج تينيت رئيس الـ «سي.آي.إي» أصدر أوامره في أعقاب هذه التفجيرات إلى جميع دوائر السي.آي.إي والمسؤولين فيها بتركيز الأولوية على منظمة القاعدة، لكن الجهود المطلوبة لم تبذل في هذا الاتجاه.

وفي ذلك الوقت من عامي (1998 ـ 1999) انشغل الرئيس بيل كلينتون بالدفاع عن نفسه إثر فضيحة مونيكا لوينسكي واكتفى بتوجيه ثلاث ضربات بالصواريخ على معسكرات بن لادن في أفغانستان وانتهى الأمر دون جدوى.

ومع ذلك، تقول جولي إن السي.آي.إي لم تقم في أعقاب هذه الضربات الصاروخية بإرسال رجالها إلى داخل أفغانستان رغم أن هذه المهمة سهلة وهي نفسها نفذتها عام 1997.

الاجتماع بمسعود

في عام 1998 قررت جولي العودة إلى أفغانستان والقيام بمهمة لصالح المخابرات العسكرية ووضعت مخططها للوصول إلى قائد قوات تحالف الشمال والخصم اللدود لحركة «طالبان» أحمد شاه مسعود، وأعدت نفسها وانطلقت نحو أوزبكستان ثم طاجيكستان واستأجرت مروحية روسية هبطت بها في وادي بانجشير حيث استقبلها

هناك رجال مسعود، الذي لم تتعاون معه واشنطن في الماضي رغم عدائه الشديد للطالبان. وتأكد لها هناك أن الولايات المتحدة كان بمقدورها تعزيز قوة تحالف الشمال والقوة الأفغانية المعارضة لـ «طالبان» وإزاحة رجاله من الحكم في كابول، لكن وزارة الخارجية الأميركية ووكالة السي.آي.إي لم يشجعا على هذا التوجه واعتماد طريقه. وتبين لجولي على الأرض الأفغانية أن شركة (أونوكال) الأميركية ومركزها في كاليفورنيا كانت تتودد لقيادة «الطالبان» من أجل السماح لها بمد شبكة أنابيب عبر أفغانستان لنقل غاز ونفط تركمانستان عبر أراضي الأفغان باتجاه باكستان وموانئها. وكانت شركة الطاقة الأميركية هذه شريكة مع شركة أخرى سعودية هي (ديلتا أويل) ووعدت «الطالبان» دفع مئة مليون دولار كرسوم على مرور هذا النفط.

كيسنجر المستشار

وتقول جولي: «أكد لي مسعود أن لديه إثباتات على أن قيادة «طالبان» حصلت على مال من شركة (أونوكال) الأميركية استخدمته في الوصول والسيطرة على كابول. ولم يكن مثل هذا التأكيد بحاجة إلى خيال واسع لأن مسؤولين في وزارة الخارجية الأميركية شجعوا علناً على مدّ هذه الشبكة واستأجرت شركة (أونوكال) بشكل وقح خدمات هنري كيسنجر ووصفته مستشاراً لها مع «الطالبان». والغريب جداً أن كيسنجر عيَّنه الرئيس بوش رئيس لجنة للتحقيق في أحداث 11 أيلول وخلفياتها ومدى وجود التقصير أو الإهمال في عدم تجنبها».

ويقول شيهي الذي أجرى المقابلة مع جولي إنها أقيلت من مهامها فور عودتها من تلك الرحلة ولم تتمكن من كتابة تقرير موجز

عما جمعته من معلومات أثناء رحلتها لأن كل ما حصلت عليه من خرائط ومقابلات ومعلومات خلال أسبوعين صودرت منها. فحين وصلت إلى مطار ريغان الدولي قادمة من أفغانستان استقبلها ضابط في المخابرات العسكرية (دي.آي.إي) وطلب منها تسليمه جميع الوثائق والأفلام والمعلومات التي أحضرتها من تلك الرحلة. وعندما توجهت نحو مكتبها في مقر المخابرات العسكرية في اليوم التالي منعت من دخول المبنى وصودرت بطاقة دخولها إلى المبنى. ويقول أحد زملائها في المخابرات العسكرية: «لقد استطاعت جولي الحصول على أكثر المعلومات قيمة عن أفغانستان لكن رحلتها الرسمية تلك تسببت بخلاف بين عدد من الوكالات الحكومية الأميركية جعلت مساعد وزير الخارجية يتبادل الرسائل مع رئيس السي.آي.إي وعلى مستوى رفيع. كان هناك من يريد التخلص من جولي وكان آخر ما يفضله هؤلاء هو رؤية ما جمعته من معلومات، كان معظمهم ضدها».

قائمة من التهم

وبعد فترة قصيرة من عودتها هذه اتهمت جولي بالتجسس ضد الولايات المتحدة واستجوبها مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف.بي.آي) بواسطة «جهاز فحص الكذب» واستجوب زوجها الذي كان يعمل هو أيضاً في المخابرات العسكرية بالطريقة نفسها.

ورغم عدم وجود أي خلل أو خرق في عمل جولي إلا أن الكابوس الذي لاحقها لم ينته لأنها شعرت بخيبة أمل كبيرة من رؤسائها. وتقول جولي: «لقد وضعت لي المخابرات العسكرية قائمة من التهم ومن بينها أنني خالفت رغبة زوجي. ومن خلال هذه التهم حاولوا النظر إليّ على غرار (ماتا هاري) الجاسوسة الشهيرة».

وتعتقد جولي بأن المعلومات التي أحضرتها أراد آخرون إهمالها وعدم النظر إليها لأنها تلحق الأضرار بـ «طالبان»، ووزارة الخارجية لم تكن راغبة أبداً بالكشف عن أي إمكانية وجود بديل لـ «طالبان» في كابول. وظهر أن أكثر ما أقلق وزارة الخارجية هو توصية جولي بإمكانية الاعتماد على تحالف الشمال لإنهاء حكم «طالبان» وتنظيم «القاعدة» من أفغانستان. وتبين من الشهادة التي عرضها دونالد رامسفيلد، وكولن باول أمام لجنة الكونغرس أن إدارة بوش بدأت تتفاوض مع «طالبان» في كانون الثاني (يناير) 2001، بل إن «الطالبان» استأجروا ابنة أخ رئيس المخابرات الأميركية السابق ريتشارد هيلمز (ليلي) لخدمتهم في واشنطن. وكان آخر اجتماع عقد بين رجال بوش و «الطالبان» قبل خمسة أسابيع من تفجيرات 11 أيلول (سبتمبر) 2001؟!.

جيرترود بيل(*)
(Girtrod Bill)
(1926 - 1868)

هي إحدى أشهر جاسوسات المخابرات البريطانية. وفي هذا الإطار يقول د. مصطفى كركوتي من لندن:

إنها النسخة الأنثوية لضابط الاستخبارات الإنكليزية تي. إي. لورنس الذي عرف بـ «لورنس العرب» التي أوفدتها وزارة المستعمرات البريطانية التي كان يديرها ونستون تشرشل، مع لورنس وآخرين إلى المنطقة العربية أثناء تلاشي الإمبراطورية العثمانية لتأسيس البديل وملء الفراغ السياسي والعسكري في تلك المنطقة.

وهكذا جاءت جيرترود بيل إلى المنطقة بعيد انهيار العثمانيين. وفي العام 1921 كانت في بغداد مع بريطانيين آخرين وأشرفت شخصياً على رسم حدود الدولة التي أصبحت تعرف باسم العراق الحديث. درست وتخصصت في علم الآثار وتعلمت لغات عدة بما

(*) المرجع: مصطفى كركوتي في مقال له نشر في جريدة «السفير» في 12 نيسان 2003.
المرجع: المحرر العدد (390). 4 - 10 نيسان 2003.
المرجع: سعيد الجزائري. «المخابرات والعالم». ص194 - 195.
وأنتوني ناتنغ ولويل توماس. لورنس لغز الجزيرة العربية. منشورات مؤسسة المعارف. بيروت 1982. ص36 - 37.

في ذلك العربية وكانت من أبرز متسلقات الجبال بين نساء عصرها. هذا النوع من الشخصيات النسائية، رغم قلة عددهن، يجدهن المرء الباحث في أرشيف الإمبراطورية التي كانت «لا تغيب من فوقها الشمس» كما كان يقال عن الإمبراطورية البريطانية التي حققت ازدهاراً غير مسبوق على أشلاء الإمبراطورية العثمانية المنهارة في مطلع القرن العشرين.

مكتبات التاريخ في بعض جامعات بريطانيا العريقة مليئة بصور هؤلاء النسوة وبصور أخرى التقطنها للأماكن والمواقع التي قمن بزيارتها، بالإضافة طبعاً إلى أوراق مكتوبة بخط أيديهن قامت التقنية بواجب حفظها على أقراص مدمجة حيث باتت تحتضن تاريخاً غابراً طالما سطرت فيه مصائر أقوام وشعوب لا تزال تعاني حتى الآن من تركة ذلك الإرث.

عندما ترى صورة هذه السيدة، جيرترود بيل، نحيفة القوام **وبفساتينها الطويلة من حرير «الموسلين»، وقبعتها الدائرية التي يتدلى حولها منديل رمادي فاتح اللون ليقي الوجه من حرارة شمس بغداد أو لسع بعوض النهر المزعج أثناء الليل، تستغرب كيف يمكن لامرأة في ذلك الزمن، وحيدة بين رجال وعسكر ذكور، أن تترك بصماتها على تاريخ صنع قبل حوالي قرن.**

جيرترود بيل مسؤولة مثل غيرها من أفراد بعثة الإدارة البريطانية التي كانت موجودة في بغداد في أراضي ما كان يسمى بـ «ميسوبوتاميا»، والآن العراق، عن رسم حدود هذه الدولة العربية التي قامت بعد الحرب العالمية الأولى على أساس ثلاثة أقاليم عثمانية سابقة، هي الموصل وبغداد والبصرة. تلك الدولة لم تتمكن من انتزاع

استقلالها حينئذ وبقيت تحت الإدارة الاستعمارية البريطانية. وفي رسالة بعثت بها إلى والدها في الرابع من كانون الأول (ديسمبر) العام 1921 كتبت جيرترود بيل تقول: «لقد أمضيت صباح اليوم كله في المكتب في مسعى للكشف عن، وتحديد موقع الحدود الصحراوية الجنوبية للعراق».

ثراء وحزن

لقد وجدت بيل «الثرية والحزينة»، وفقاً لسيرتها الذاتية، التي كانت من أبرز طلبة جامعة أوكسفورد وأكثر نساء عصرها جرأة في تحدي مجتمعها الذكوري في ذلك الحين، وجدت في المجتمع العربي ـ الذكوري أيضاً ـ «إمكانيات هائلة». كما قالت في إحدى رسائلها لوزارة الخارجية في لندن، لم يتمكن آخرون فهمها أو استيعابها في ذلك الحين. حتى الولايات المتحدة اختارت أن تبقى بعيدة عن المنطقة «المعقدة والصعبة والغامضة» وفقاً للرئيس الأميركي آنذاك وودرو ويلسون الذي كان يرى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى بمثابة «لغز وورطة من الأفضل أن نبقى بعيدين عنها».

لقد سبق جيرترود بيل بعض الرجال من بلدها إلى المنطقة العربية وقالوا في مذكراتهم إن «بإمكان الإنكليزي أن يصبح عربياً»، لاسيما تي.إي. لورنس الذي أطلق على نفسه اسماً أسطورياً في وقت لاحق «لورنس العرب». جيرترود بيل تخطت هؤلاء الذكور حيث بدت وهي تتحرك مع شيوخ القبائل وفرسان الصحراء وكأنها متساوية معهم من دون أن تتخلى عن إنثويتها كامرأة بريطانية. وتكشف رسائلها إلى والدها وزوجته عن أهم فترة في القرن العشرين بما يتعلق بالعالم العربي عموماً والعراق على وجه الخصوص، وأهم فترة في حياتها

الشخصية أيضاً، بدءاً من طلباتها شراء ألبسة قطنية من محلات «هارفي نيكولز» الراقية وانتهاء بالتعليق على الغارات الجوية التي كانت تقوم بها القوات البريطانية على أكراد وعرب العراق المتمردين.

كثيرون من أمثال جيرترود بيل مروا في تاريخ تلك المنطقة ومن بينهم لورنس نفسه، ولكن اسم «الآنسة بيل»، كما كانت تعرف في بغداد لاسيما وأنها بقيت عازبة، هو الذي لا يزال عالقاً بأذهان المؤرخين والسياسيين في العراق، بما في ذلك من له علاقة بالتاريخ والتوثيق من بين أعضاء حكومة صدام حسين المنهارة، وخاصة الروايات المتعلقة بنشاطها الاجتماعي والترفيهي في مقاهي بغداد وحفلات السهر في حدائق النخيل والاستحمام على ضفاف دجلة.

برغم هذا الوجه الجميل لـ «الآنسة بيل»، فهي وضعت مع رئيسها المباشر آنذاك المفوض السامي البريطاني سير بيرسي كوكس، سياسات لدولة العراق الحديث كانت تطبق بالعنف والقوة، وهي سياسات لا تزال متبعة في معظمها حتى الآن مثل: السيطرة بالقوة على الجبال الكردية كمنطقة عازلة ضد تركيا وروسيا، والتفريق الطائفي بترويج السنّة على حساب الأقليات بما في ذلك الشيعة، وقمع أئمة الشيعة في النجف وكربلاء والكاظمية أو إبعادهم إلى إيران، ورشوة كبار ملاك الأراضي وزعماء العشائر، وتنظيم الإحصاءات المزورة، واللجوء إلى استخدام القوة الجوية بغية السيطرة على أي تمرد. ومثل ما يردد بعض مسؤولي حزب البعث العراقي في معرض دفاعهم عن نظام الحكم في بغداد، بأن «العراق بلد لا يمكن أن يحكم بغير أسلوب القوة»، فإن جيرترود بيل كتبت لوالدها في الثامن من كانون الأول (ديسمبر) 1920 تقول: «العراق ليس بلداً متحضراً ولا يحكم إلا بالقوة».

وكأن التاريخ يكرر نفسه كما يقال، إذ تواجه قيادة الحزب الحاكم في العراق مصيراً مماثلاً لما واجهته القيادة العثمانية في مطلع القرن الماضي. المطروح حالياً من جانب الولايات المتحدة هو إقامة إدارة عسكرية لإدارة شؤون العراق في بغداد، وتقدم الخطة التي كتبتها جيرترود بيل العام 1920 والتي سميت بـ «الورقة البيضاء»، وبعثت بها إلى وزارة الخارجية في لندن، سابقة موجودة في أرشيف دائرة الوثائق الرسمية للاستفادة منها إذا شاءت واشنطن ذلك. فتلك الخطة ـ الورقة التي تكتبها امرأة لأول مرة، المكونة من ستة مجلدات من المذكرات بالإضافة إلى 1600 رسالة شخصية بعثت بها إلى والدها، والمتوفرة أيضاً في موقع إلكتروني تابع لمكتبة جامعة «نيوكاسيل»

www.gerty.ncl.ac.uk/home/index.htm.

هي مادة أساسية يجب على مخططي السياسة في الإدارة الأميركية، وعلى كل من يرغب في الاطلاع على ذلك الجزء من تاريخ العراق، قراءتها لتعلم «الدروس» من حكم العراق والسيطرة عليه، وخاصة في ضوء ما هو معروف عن جهل معظم رموز الإدارة الحاليين بالشرق وثقافته وتاريخه.

شغف بالشرق

أثارت هذه السيدة انتباه المسؤولين في الحكومة البريطانية الاستعمارية في ذلك الحين من خلال مضمون التقارير والرسائل التي كانت تبعث بها إلى لندن أو إلى نيودلهي حيث كان يقع مقر الإدارة الاستعمارية لإمبراطورية الملكة فيكتوريا، وهي لا تزال تثير الاهتمام.

من هي غيرترود بيل؟ اسمها الكامل هو جيرترود مارغريت لوثيان بيل ومولودة في الرابع عشر من تموز (يوليو) العام 1868 في

مقاطعة دارم في شمالي شرقي إنكلترا. أسرتها كانت معروفة في البلاد لسيطرتها على تجارة الحديد والفولاذ في الشمال الإنكليزي ولآراء أفرادها المنفتحة والتقدمية. في 1886 غادرت جيرترود مدينتها وتوجهت إلى كلية «ليدي مارغريت» التابعة لجامعة أكسفورد حيث كانت أول امرأة تحصل على درجة شرف في التاريخ المعاصر. ولأنها لم تكن من جنس النساء الرائج في سوق الزواج كما قيل عنها آنذاك، فقد اهتمت جيرترود بيل بالدراسة وقامت بتعليم نفسها اللغة الفارسية وسافرت إلى إيران العام 1892 حيث كان يعيش ويعمل عمها كسفير لبريطانيا.

لقد كتبت جيرترود أول كتاب رحلات لها بعنوان «صور فارسية» وقامت بترجمة الأعمال الإباحية للشاعر الفارسي حافظ الذي صدر بالإنكليزية على شكل كتاب جيب باللون الأصفر. ووقعت جيرترود بغرام دبلوماسي بريطاني وأحبته حباً حتى الموت والعبادة ولكن لم تتزوجه لرفض والدها له. ولكن ذلك لم يمنعها من المحافظة على روابط ذلك الحب وكانت تفعل ذلك بسرية بالغة. وأمضت جيرترود بيل العقد اللاحق بالقيام بأنشطة بدنية لا علاقة لها بالتاريخ أو الفكر وهي رياضة تسلق الجبال حيث كانت أيضاً أول امرأة تتسلق مرتفعات جبال الألب من ناحية شمال ـ الشرق التي لم يسبق أن تسلقها أحد وبقيت لمدة 53 ساعة معلقة بالحبال تحت عاصفة ثلجية غير عادية في صيف العام 1902.

بعد ذلك عادت إلى الاهتمام بالمنطقة التي كانت تحبها وبدأت تعلم اللغة العربية في القدس وكتبت عن سوريا وتاريخها وعلمت نفسها علم الآثار. وانغمست جيرترود بيل في دراسة السياسة القبلية وقامت برحلة خطيرة في العام 1914 إلى مدينة حائل في شمالي

السعودية التي كانت مقر قيادة الخصم اللدود لحليف بريطانيا الجديد مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز بن سعود.

عند قيام الحرب العالمية في ذلك الصيف وانضمام العثمانيين إلى الحلف الألماني في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1914، كلفت جيرترود بيل ولورنس وغيرهما من علماء الآثار ـ الجواسيس، بالالتحاق بجهاز الاستخبارات البريطاني في القاهرة الذي كان يعرف باسم «المكتب العربي». وفي العام 1916 كانت قوة استطلاعية بريطانية قد قدمت من الهند إلى العراق ولكنها بعد حين استسلمت للقوات التركية عند موقع الكوت ـ العمارة بالقرب من نهر دجلة الجنوبي ـ الغربي. بعد ذلك توجهت جيرترود بيل إلى البصرة حيث كان البريطانيون يجهزون قوة عسكرية جديدة لهم هناك. وعند سقوط بغداد في العام 1917، انتقلت بيل إلى العاصمة وعينت هناك لاحقاً مستشار شؤون العلاقات مع العرب لدى المفوض السامي كوكس.

وكانت السياسة البريطانية في الشرق الأوسط في ذلك الحين في حالة إرباك مطبق، حيث كانت الحكومة الإمبراطورية في الهند تطالب بالسيطرة الكولونيالية التامة على العراق باعتبارها موقعاً استراتيجياً عند رأس الخليج، في حين كانت لندن توصي بالتروي نظراً لما قدمته من تعهدات للعرب مقابل قتالهم ضد الأتراك. وتم الوصول إلى حل وسط أثار سخطاً عارماً في العراق بتشكيل ما سمي آنذاك بانتداب عصبة الأمم الذي منح لبريطانيا العام 1920.

الإدارة البريطانية في الهند بقيادة آرثر ويلسون كانت تقول إن التنوع الديني والتعدد القبلي سيقوض دائماً أسس أي دولة تقوم في العراق، في حين أن جيرترود كانت تقول إن عرب وسنة العراق

قادرون، حتى لو من ناحية الشكل، على توفير شروط الدولة المستقلة. لقد كان مستغرباً أن تقف جيرترود بيل وحدها، وخاصة أنها امرأة وحيدة بين ذكور، أمام حكومة الهند، ولكن شعورها المبالغ به بالقوة هو الذي كان قد دفعها إلى هذا التحدي. فهي كانت تعتمد على مكانة وسمعة رئيسها كوكس في الوقت الذي أساءت فيه تقدير قوة شيعة العراق ومرجعيتهم الدينية الذين قالت عنهم لاحقاً في مذكراتها: «إنهم يعيشون في أجواء مشبعة بروائح العصور القديمة ومغطاة بغبار التاريخ الكثيف الذي يمنعك من رؤية ما بداخلهم».

في السابع والعشرين من حزيران (يونيو) كتبت جيرترود بيل التالي: «في ظل هذا الطوفان، فإني أراهم يتوجهون نحونا». وبالفعل، فقد تمردت قبائل الشيعة ما بين النهرين في الشهر التالي وسقط جراء ذلك العشرات من الجنود البريطانيين بالإضافة إلى حوالي ثمانية آلاف عراقي قبل كبح جماح ذلك التمرد. في ربيع العام التالي عقد وزير المستعمرات آنذاك ونستون تشرشل مؤتمراً لكبار موظفي الإمبراطورية في القاهرة وكانت بيل المرأة الوحيدة في المؤتمر، ولكن كان لها ما تشاء. فقد وافق المؤتمر على خطتها بتسمية الأمير فيصل الهاشمي الذي أطاح به حينئذ الفرنسيون في سوريا ملكاً على العراق، وتم تنظيم استفتاء مزور يخجل الآن حكام الحزب الواحد من نتائجه، لتثبيته ملكاً. فقد حصل فيصل على نسبة 96 في المئة من الأصوات المؤيدة، وقام البرلمان الجديد بتمرير تشريع يستبدل الانتداب بمعاهدة بريطانية ـ عراقية لحماية النظام الجديد في العراق.

كانت تلك النتيجة مصدراً لسعادة جيرترود بيل التي كتبت حول تلك التجربة معلقة تقول: «لن أزج بنفسي ثانية في صنع الملوك. يا لها من مهمة شاقة ومرهقة»!. لقد ساهم ذلك الإنجاز الاستعماري

الكبير في التأثير على شخصية جيرترود التي بدأت تشعر بأنه لا يمكن الاستغناء عنها لاسيما بعد أن أنعم العراقيون عليها ألقاباً طنانة وسموها بـ «الخاتون»، وهو اللقب الذي يطلق على النساء العظيمات أو اللاتي يحظين بمكانة سامية. وقد عبرت عن هذا الزهو بالنفس في رسالة بعثت بها إلى والدها في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) العام 1921، إذ قالت: «عندما نمر على جيادنا في حدائق أحياء الكرادة، فإن جميع من نصادفهم يقدمون لي التحية والود. وقال لي نوري (السعيد الذي كان رئيساً لوزراء العراق عندما أطيح به وأعدمه أول انقلاب عسكري عراقي في عام 1958)، إن أحد أسباب تميزي هو كوني امرأة فهناك خاتون واحدة عندنا. . وأعتقد (الكلام لا يزال لنوري السعيد) أن الناس سيتحدثون عن الخاتون الخيالة لمئة سنة مقبلة. وأنا أوافقه على ذلك يا والدي».

الوجه القاسي

هذه السيدة التي بدت وكأنها مصدر حنان وحب وعطف، كان لها وجهها القاسي. فهي على سبيل المثال كانت تشارك الرجال العسكر في متابعة العمليات العسكرية وكانت تتعامل مع هذه العمليات وكأنها جزء من الترفيه الواقعي. ويتبين هذا في وصفها في إحدى رسائلها للقصف الجوي للأكراد في منطقة السليمانية، إذ قالت: «لقد كانت أكثر إثارة من العرض الجوي لقواتنا في العام الماضي لأن العمليات هذه المرة كانت أقرب إلى الحقيقة. فقد قصفوا قرية خيالية بالصواريخ من جهتين وارتفاع 3000 قدم وأصابت وسط القرية، وقامت القوات الجوية بعد ذلك بقصف أطراف القرية من جميع الجوانب حيث اندلعت نيران استطعنا أن نرى لهبها بوضوح رغم نور

الشمس الساطع. وقامت بعد ذلك عربات ناقلة للقوات بمحاصرة القرية وقام أفرادها بإطلاق النار من رشاشاتهم لقتل الفارين منها».

جيرترود بيل لم تكن شخصية محبوبة لدى المسؤولين في لندن أو في نيودلهي. وعندما غادر كوكس بغداد العام 1923، شعرت بيل لأول مرة بأنها فقدت حاميها البيروقراطي. وتفرغت منذ ذلك الحين إلى حبها الأول، أي علم الآثار، وأقامت «متحف بغداد للآثار» الذي لا يزال موجوداً حتى الآن. وأصبحت رسائلها إلى والدها مليئة بالحديث عن السأم والاكتئاب والمرض، وفي يوم الاثنين الواقع في الحادي والعشرين من تموز (يوليو) 1926، فارقت جيرترود بيل الحياة فجأة.

المملكة التي أقامتها جيرترود تمكنت من البقاء بفضل اكتشاف النفط الخام في كركوك العام 1927 وتمكنت من صد المغامرات التركية والسعودية وأخمدت العديد من الانتفاضات الشعبية، والتي كان أسوأها في العام 1941 عندما قام ضباط موالون للألمان بإبعاد الملك ونوري السعيد إلى المنفى. إلا أن النهاية الحقيقية للمملكة جاءت بعد هزيمة بريطانيا في مغامرة السويس العام 1956 التي وضعت نهاية للإمبراطورية نفسها، بقتل الملك وأفراد أسرته ورئيس وزرائه نوري السعيد في انقلاب 1958 الذي أعلن قيام الجمهورية العراقية.

لقد عاش عراق جيرترود بيل مدة 37 سنة، وبعده عاش الحكم الجمهوري مدة عشرة أعوام قبل أن يسيطر حزب البعث على الحكم في العام 1968.

من رسائل جيرترود بيل البغدادية التالي:

بغداد، 20 نيسان (أبريل) 1917: يا له من ترحاب. لقد رحب

بي سير بيرسي (كوكس) أجمل ترحيب عند وصولي إلى بغداد وقال لي إنه رتب مسكناً لي.. وهو بيت صغير مثل الصندوق في بازار قذر. لحسن الحظ، لم أفارق منذ وصولي السرير والحمام. فقد أفرغت أحد صناديق عفشي الذي وقع مني في نهر دجلة وفرشت محتوياته منشورة في ساحة المنزل على حبال الغسيل».

بغداد، 26 أيار (مايو) 1917: «لا أعتقد أنه سيكون باستطاعتي أن أنتزع نفسي بشكل دائم من مستقبل هذا البلد.. إنه حقاً لأمر رائع أن تشعر بحب وثقة الناس كلهم من حولك. فيا له من أمر جميل أن تكون موجوداً في نهاية الحرب وأن يكون لك حرية التصرف».

بغداد، 14 آذار (مارس) 1920: «حتى قبل وقت قصير كنت محرومة من التعاطي مع الشيعة. فهم لهم معتقداتهم التي تحرم عليهم النظر نحو امرأة غير محجبة، وأنا لي معتقداتي التي لا تسمح لي بارتداء الحجاب... كما أنه ليس من الضروري أن أحاول كسب ود النساء أيضاً، لأنهن يتحجبن عند رؤيتي وكأنني رجل. وهكذا كما تلاحظ يا والدي، فأنا أبدو أنثى أمام جنس ما، وذكر أمام الجنس الآخر».

بغداد، 11 أيلول (سبتمبر) 1921: «هل أخبرتك في السابق كيف يبدو النهر في ليلة صيف حارة؟ عند الغسق تتجمع طبقة من الضباب الرقيق (غشاوة) على شكل رقائق بيضاء تجلس فوق بعضها البعض وكأنها تسبح فوق الماء، وتغيب عن ناظريك أنوار النهار نهائياً لترى أضواء المدينة تتلألأ على طول ضفتي النهر المظلم والهادىء المليء بالأفكار الغامضة، وكأنه طريق يشقه المنتصرون من وسطه».

يضاف إلى ذلك، أن هذه الجاسوسة البريطانية هي التي رسمت حدود العراق وعينت فيصل ملكاً عليه حسبما أشارت إليه صحيفة «ديلي ستار» البريطانية أيضاً.

ومن المؤلم القول إن هذه الأمة العربية لا تزال تعيش في قلب التأثيرات التي فرضتها عليها اتفاقية «سايكس - بيكو» الإستعمارية التي وقعت بين الضواري الإستعماريين لاقتسام وتجزئة هذا الوطن العربي. والعراق أصبح دولة على الطريقة البريطانية الإستعمارية حين شكلت بريطانيا طبيعة حدوده ومن سوف يعيش فوق أرضه رغماً عن إرادة شعبه وارتباطه بأمته العربية. واليوم ثمة من أراد أن يتذكر الدور الذي لعبته امرأة بريطانية في تشكيل دولة العراق الملكية الأولى. فهذه المرأة كانت جاسوسة بريطانية درست علوم الآثار وتقربت من أول ملك عيّنته بريطانيا على العراق فيصل الأول ابن الشريف حسين.

تقول كريستينا فويرش في مقال نشرته في صحيفة «ديلي ستار» البريطانية في 22/ 3/ 2003 «إن جيرترود بيل، ذات الشعر المجعد الأحمر والبشرة الناعمة والعينين الخضراوين كانت صانعة الملوك، والجاسوسة الخاصة للاستعمار البريطاني بين المسؤولين العرب في الحرب العالمية الأولى وما قبلها، وخصوصاً بين آل الشريف حسين وأبنائه. فهي التي اعتبرت الملكة غير المتوّجة على العراق والتي ملكت قرار تحديد مستقبل العراق في ذلك الوقت».

ويبدو أنها كانت حقاً من بين من ساهموا في صنع أول ملوك العرب في العصر الحديث في بداية القرن العشرين. فالكاتبة فويرش تقول: «لقد سحرت وفتنت جيرترود بجمالها رجال السياسة البريطانيين وأبناء الشريف حسين والشيوخ العرب. ومثلما يوجد لكل عصر أيقوناته الخاصة كانت جيرترود أيقونة تمثل أقوى «امرأة في إمبراطورية الاستعمار البريطاني في أوائل سنوات القرن العشرين. فهي الصديقة والزميلة للجاسوس البريطاني الشهير تي.إس لورانس الذي عرف باسم «لورانس العرب». وكانت جيرترود تتقن الحديث بالعربية بطلاقة

وتعمل برتبة ضابط مخابرات بريطانية وبصلاحية واسعة، حتى أنها أسهمت في تحديد مستقبل العراق من خلال اقتراحاتها وتقديراتها.

وقامت بدورها بجدارة لأنها كانت تدرك أهمية النفط للاستعمار البريطاني، ولذلك درست بدقة وضع تلك المنطقة وتوصلت إلى نتيجة مهمة هي أن على بريطانيا خلق دولة في العراق يكون زعيمها العربي حليفاً مخلصاً لبريطانيا وقادراً على حماية النظام الذي يوفر للبريطانيين استغلال المصادر الطبيعية في هذا البلد لصالح بريطانيا. وكانت جيرترود قبل البدء بتنفيذ مهماتها قد تعلمت العربية في مدينة القدس حين كانت في العشرينات من عمرها. وبعد تمكنها من الإلمام بالعربية شعرت بالقدرة على التوجه لوحدها إلى الالتقاء بالشيوخ العرب. وكان يرافقها طباخ وخادمة دونما حراسة خاصة. واستخدمت عدداً من الخيول والجمال في رحلاتها وكأنها في عهد ألف ليلة وليلة.

وأثناء تنقلها في هذه القافلة الصغيرة كانت تتعرض أحياناً للاختطاف بشكل موقت من قبل رجال إحدى القبائل ثم سرعان ما تنقذ نفسها من الوضع اليائس وتصبح صديقة لبعض شيوخ تلك القبائل العراقية. ولأنها اكتشفت القيمة المهمة للتاريخ والآثار في العراق قررت دراسة علوم الآثار في بريطانيا وغادرت العراق لمدة من الوقت وعادت من جديد.

الجاسوسة الأولى لمكتب القاهرة

وفي أعقاب إقامتها لعلاقات خاصة مع عدد من الشخصيات العربية المهمة في الجزيرة العربية، قرر ونستون تشرشل وزير الخارجية البريطاني في الحرب العالمية الأولى استدعاءها وضمها إلى «مكتب القاهرة العربي» التابع لوزارة المستعمرات البريطانية. وذهل تشرشل

من المعلومات التي جمعتها عن المنطقة بما فيها المعلومات الطبوغرافية وقدمت له خارطة ظهرت فوقها مواقع آبار المياه وخطوط سكة الحديد، والممرات المناسبة بين الرمال. وتقول جانيت والاش التي تحدثت عنها في العديد من الدراسات: «وبالإضافة إلى هذا كله كانت جيرترود قد حددت بدقة الفئات التي يمكن أن تعادي بريطانيا والفئات التي يمكن أن تتعامل معها وتتعاون مع أهدافها». وبسبب كل هذه المعلومات اعتبرت جيرترود أهم امرأة، بل المرأة الوحيدة التي سجلت في ملفات المخابرات البريطانية واحتلت منصب الجاسوسة الأولى في مكتب القاهرة (أو محطة التجسس البريطانية في القاهرة) في ذلك الوقت. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى شكلت المعلومات التي كانت جيرترود تزودها للحكومة البريطانية عن العراق وإيران قيمة مهمة في رسم المخططات البريطانية وتنفيذ اتفاقية (سايكس ـ بيكو) على الأرض. وعندما عين تشرشل وزيراً لشؤون المستعمرات عام 1921 قام على الفور بعقد اجتماع لأفضل الخبراء في شؤون الشرق الأوسط في مصر من أجل التشاور في رسم مستقبل المشرق العربي.

وبلغ عدد المدعوين إلى هذا المؤتمر 39 رجلاً وامرأة واحدة فقط هي جيرترود بيل. وفي ذلك الاجتماع اقترحت جيرترود أن تستولي بريطانيا على الولايات العثمانية الثلاث: البصرة، والموصل وبغداد وتشكل منها دولة جديدة هي «العراق». بل وحددت جيرترود حاكم هذه الدولة الجديدة حين ذكرت في المؤتمر اسم الملك فيصل ابن الشريف حسين.

وعندما استلم فيصل العراق وعيِّن ملكاً عليه أصبحت جيرترود الجميلة الفاتنة من أقرب مستشاريه السياسيين والصديقة الحميمة له.

وتقول الكاتبة فويرش: «وعلى الرغم من هذا الدور المهم والكبير الذي قامت به جيرترود في تشكيل العراق والمساهمة في حكمه مع الملك فيصل، إلا أن معظم العراقيين لا يعلمون شيئاً كثيراً عن جيرترود بيل في يومنا هذا». وتقول مراسلة الراديو الوطني البريطاني كيت سيلاي: «لكن المثقفين في العراق أدركوا منذ ذلك الوقت أن جيرترود جاسوسة، بل وجاسوسة أحبت العرب فيما بعد». وفي التاريخ العراقي يذكر البريطانيون أن الجمهور العراقي أطلق عليها في ذلك الوقت اسم «السيدة التي كانت تمتطي الحصان». ولم تخف جيرترود علاقتها بشيوخ الجزيرة العربية والعراق وتحدثت عنها في مذكراتها أيضاً وعن حلمها في تحويل دولة العراق إلى الدولة النموذج بين الدول التي استعمرتها بريطانيا. لكن وولفغانغ كوهلير المراسل المختص في الشرق الأوسط يرى أن بريطانيا أهملت عن عمد عدداً من القضايا التي خلقتها هي مثل النزاع على الحدود مع مشيخة الكويت، ومشكلة الأكراد في الشمال.

وفي عام 1926 أجبرت تركيا الحديثة على التوقيع على قبول ضم الموصل إلى ولاية بغداد والبصرة بعد فشلها في سلخها عن هاتين الولايتين. وتحقق شكل الدولة المملكة التي وضعت جيرترود مخططها لتشرشل. لكن العلاقة الحميمة مع فيصل بدأت تتدهور، فتخلّت عن النشاط السياسي الخفي من وراء الكواليس وركزت اهتمامها على الآثار العراقية.

لكن أهم مفعول لتجسسها كان قد جرى خلال الأعوام التي سبقت الحرب العالمية الأولى وأثناءها. ففي تلك الفترة عاشت في الجزيرة العربية مع هودجها الخاص وجمالها وخدمها بين آل ابن رشيد وبين آل ابن سعود مؤسس الدولة السعودية. وكانت تتنقل بين الجانبين

المتنازعين على الحكم وتوسيع رقعة الأرض التي كان كل منهما يسيطر عليها في أراضي الحجاز والجوف قبل نشوء المملكة السعودية وانتصار ابن سعود على خصومه رؤساء القبائل الأخرى.

وفي مذكراتها الطويلة ورسائلها التي نشرت ذكرت جيرترود قصصاً كثيرة عن الذين التقت بهم مثل آل الشعلان، وعبد العزيز آل سعود ونسائه وأبنائه في نفس مواقعهم وقصورهم المتواضعة في ذلك الوقت.

وفي الرسالة التي تحمل تاريخ 4 آذار (مارس) 1914 تقول جيرترود: «في أحد المنازل الخاصة بعبد العزيز آل سعود في العنيزة أدخلوني إلى جناح الحريم حيث استقبلتني السيدة تركية حيث شاهدت عدداً من زوجاته وكذلك شقيقته المسنّة. وشاهدت هناك الابن الصغير لمتعب».

وفي رسائل أخرى كانت جيرترود تعترف أنها ترسل بعض خدمها لاستقصاء الأخبار عن المعارك التي جرت في مناطق الحجاز للسيطرة على شبه الجزيرة العربية. وكانت تقوم بتحليل هذه المعلومات وتشكيل صورة عن طريقة تفكير العديد من الشخصيات المهمة في تلك الحرب وخصوصاً آل سعود. وبعد انتصار بريطانيا على الدولة العثمانية واقتسامها الوطن العربي مع فرنسا أصبحت جيرترود الضيفة والمستشارة الدائمة لآل الشريف حسين خصوم آل سعود الذين أجبروا على مغادرة الحجاز وعوضتهم بريطانيا عن ذلك بتعيين فيصل ملكاً على العراق وعبد الله أميراً على شرقي الأردن، وهذا ما جعلها صانعة الملوك التابعين للاستعمار البريطاني في العراق والأردن حتى عام 1926.

ففي ذلك العام قيل إنها انتحرت بابتلاع عدد كبير من حبوب الدواء ودفنت في نفس بغداد.

ويقول المراسل الصحفي سيلاي بعد تطرقه إلى هذه المرأة في العراق منذ وقت قريب: «يقول لي العراقيون إن بريطانيا لم تستطع فرض ما تريد علينا ونحن واثقون أن واشنطن لن تستطيع فرض ما تريد أيضاً».

أما أنتوني ناتنغ ولويل توماس، فقد تطرقا أيضاً في كتابهما عن «لورنس العرب، لغز الجزيرة العربية» إلى موضوع جيرترود بيل، فقالا بأنها من كبار جواسيس المخابرات البريطانية. كانت تعمل مستشارة سياسية للسير بيرسي كوكس، رئيس المكتب السياسي في الشرق بصورة غير رسمية.

كانت السيدة جيرترود من مواليد 1868 سيدة مجتمع من الدرجة الأولى تمتاز بالجرأة والثقافة الواسعة. أرسلت عام 1915 بمهمة خاصة من قبل المخابرات البريطانية إلى القاهرة وسكنت في فندق شبرد. وبعد مدة أصبحت تدعى إلى مختلف الحفلات الاجتماعية. وكانت أثناء ذلك تقوم بجمع المعلومات عن «الحركة القومية المصرية». تنقلت مهمتها ما بين القاهرة والإسكندرية. ظهرت في الأهرامات تركب الجمال، وتستقي الأخبار من هنا وهناك. أخذت تظهر بعض العطف على حركة «التحرير» من الاستعمار البريطاني كما درّبت (وهي منهم).

وكانت في الوقت نفسه قد أسست شبكة للتجسس ممّن اصطادتهم كأصحاب الحانات وبعض الأولاد، الذي يجيدون غالباً اللغة الإنكليزية، ومثلهم (التراجمة) وبعض موظفي السفارات الأجنبية

في القاهرة الذين تعرفت عليهم بحكم ترددها على هذه السفارات، لحضور حفلاتها المختلفة. وكانت تزود المخابرات البريطانية بجميع ما يتطلب معرفته عن أحرار مصر، حتى أنها انتقلت إلى الصحراء، وأقامت مع (البدو) وتعلمت بعض لغتهم، وعقدت صداقات مع رؤساء العشائر، وأكلت من طعامهم وتحملت المشاق والصعاب دون أن تخلد إلى الراحة حتى منحت أثناء ذلك، ونظير خدماتها هذه، وسام «الإمبراطورية». وهذا الوسام لا يمنح إلا لكبار القادة العسكريين أو لمن يقومون بأعمال خارقة لرفع شأن الإمبراطورية العظمى.

وعملت أيضاً في الخرطوم عاصمة السودان، وفي نيودلهي في الهند؛ أعيدت بعدها إلى شرق الأردن والحجاز حيث قابلت جورج فيلبي أو (الحاج عبدالله) كما كان يسمى بعد إسلامه.

وأخيراً أرسلت إلى العراق فظهرت في مجتمعات بغداد الراقية. ثم انتقلت إلى الموصل. وكانت دائمة التجول في الصحراء العراقية، وصادفت أثناء تجوالها قافلة متوجهة إلى أفغانستان بقيادة شاب (تذكّرته). ولما حاولت السلام عليه قال لها بعض معاونيه إنه (جمال إيراني)، فابتعدت عنه لأنه زميلها (لورانس) في طريقه لتنفيذ مهمة مثلها. وقد التقت معه في البصرة عام 1916 وبقيت تمارس نشاطها في البلاد العربية حتى عام 1926، حيث أعيدت إلى الهند. وهناك توفيت بعد أن أدت أعظم الخدمات للانتلجانس سرفيس. وقد شرحت للورنس خطتها الرامية إلى تشكيل حكومة تضم في أعضائها ممثلين في جميع بلدان الشرق الأوسط.

جين هورني (*)

(Jynn Horny)

(1913 -)

هي إحدى عميلات المخابرات الألمانية النازية، والتي اشتهر عنها بأنها: «**حسناء غامضة في نوادي ستوكهولم الليلية**». فضلاً عن اعتقاد الكثيرين من خبراء الجاسوسية والمخابرات أنها كانت «عميلة مزدوجة».

فخلال سنوات الحرب العالمية الثانية (1939 ـ 1945) حرصت الأطراف المتحاربة الألمانية والحليفة على الإبقاء والحفاظ على حياد العاصمتين السويدية ستوكهولم والبرتغالية ليشبونة، وإبعاد كل منهما عن مخاطر الدمار أو القصف الجوي.. أو حتى التفكير في احتلالهما، لأنه وبكل بساطة كانت العاصمتان محتلتين بالفعل من جيوش العملاء السريين لأجهزة المخابرات التابعة للدول المتحاربة، بالإضافة إلى نشاط كبار دبلوماسييها ورجال الأعمال وتجار السلاح والباحثين عن مواد الإمداد والتموين للجيوش النازية والقوات الحليفة.

(*) المرجع: طلعت المرصفي «أوراق مجهولة من ملفات المخابرات العالمية». مكتبة مدبولي. القاهرة 1995. ص183 ـ 196.

كما كانت الاتصالات اليومية مع السويد أمراً حيوياً، يحرص على تدعيمها المسؤولون السويديون، بعد أن تحولت بلادهم إلى أهم مراكز التعامل والتجارة الخارجية مع جميع الأطراف. ولم يكن مثيراً للدهشة والاستغراب مشاهدة الوفود الألمانية التي لا يتقطع تدفقها يومياً على وزارات الخارجية والتجارة والصناعة وحتى وزارة الشؤون الاجتماعية بنفس النشاط الذي كان يمارسه ممثلو الجمعيات والهيئات البريطانية في الحفاظ على خطوط الاتصالات البريدية مع أسرى الحرب من جنود القوات الحليفة في معسكرات الاعتقال النازية، وكذلك بحثاً عن الطيارين الذين كان يتم إسقاط طائراتهم، ويفلحون في التسلل أو الوصول إلى الأراضي السويدية والإفلات من الوقوع في أسر القوات النازية.. وانتظار ترحيلهم إلى بريطانيا والعودة إلى الاشتراك في المعارك الجوية مرة أخرى.

الأكثر من ذلك أن البريطانيين كانوا يعتمدون على مراكز الصناعة الحربية السويدية في الحصول على ما ينقصهم من المعدات والمكائن وقطع الغيار التي كانت تستهلك بكثافة وتعجز مصانعهم عن الوفاء بسرعة إنتاج البدائل في السنوات الأولى من الحرب التي بلغت فيها المعارك الجوية والبرية ذروتها، في نفس الوقت الذي كان فيه الألمان أيضاً يتنافسون في الحصول على حاجتهم من منتجات المصانع الحربية السويدية وإبرام العقود المفتوحة وبأي ثمن مع المسؤولين عنها.

وفي عام 1943 كانت العاصمة السويدية ستوكهولم قد أصبحت المعقل الوحيد في شمال أوروبا، التي لا تزال غارقة في بحور الضوء، وتفتح أبواب نواديها الليلية ومطاعمها ومسارحها لاستقبال تدفق الآلاف من السياح ورجال الأعمال الذين كانوا في الواقع ستاراً

يختفي خلفه العملاء والجواسيس وأمهر رجال المخابرات النازية والبريطانية على حد سواء.

في هذا العام ظهرت فجأة في تلك المرابع الليلية للعاصمة السويدية ستوكهولم امرأة حسناء في حوالى الثلاثين من عمرها، تفيض حيوية وتمتلك من عوامل الإغراء الكثير، بشعرها الأحمر وعينيها الزرقاوين الصافيتين، وجسدها الممشوق الذي أدارت به رؤوس العشرات من كبار الدبلوماسيين، ورجال الأعمال الذين عرفوها باسم «جين هورني» دون الاهتمام بأصولها الحقيقية، سواء كانت مواطنة سويدية كما كانت تزعم، أو بريطانية من مواليد إحدى المدن الداخلية في جنوب إنكلترا، كما كان يتهامس عن أصلها المتطلعون إلى معرفتها والحظوة بصحبتها يوماً ما. وإن ظلت حقيقتها وجنسيتها الأصلية سراً لم يستطع الوصول إلى معرفته أو الكشف عنه أي من الخبراء والجواسيس المهرة الذين كانوا يحومون حولها بلا انقطاع.

وعقب مضي أسابيع قليلة على ظهورها في النوادي الليلية في العاصمة السويدية ستوكهولم تحولت جين هورني إلى أشبه بجوهرة التاج الذي يتطلع الكثيرون إلى انتزاعه والاستحواذ عليه وعلى صحبتها وبأي ثمن. كما لم تتردد جين هورني عن الاستجابة لمحاولات الكثيرين منهم، وأصبحت تشاهد في صحبة كبار الدبلوماسيين الأجانب، أو خبراء أجهزة المخابرات المعروفين في العاصمة السويدية وبغض النظر عن جنسياتهم الألمانية أو البريطانية أو الأميركية بين أكثر من ممثلي أجهزة تجسس اثنتي عشرة دولة يتنافسون في إدارة أنشطتهم في ساحات ستوكهولم المفتوحة ومرابعها الليلية في تلك الفترة.

وأياً كانت حقيقة جنسية جين هورني المجهولة، أو اللعبة التي تمارسها في النوادي الليلية في مدينة ستوكهولم في تلك الفترة، فقد كانت الحقيقة واللعبة من أخطر الحقائق والألعاب التي تمت ممارستها في ذروة سنوات الحرب العالمية وانطوت صفحاتها سريعاً، وظلت أوراقاً وسجلات مجهولة في ملفات المخابرات الألمانية والسويدية و.. البريطانية حتى الآن.

فقد كان البريطانيون وعملاء في ستوكهولم على قناعة ومنذ الظهور المفاجىء للحسناء جين هورني بانتمائها إلى عضوية جهاز المخابرات الألمانية «الابفيهر» وظل تعاملهم ومتابعتهم لها طوال حقبة ظهورها ونشاطها القصير على الساحة السويدية يسوده هذا الاعتقاد. كذلك كان الاعتقاد الراسخ لخبراء أجهزة المخابرات الدنماركية الذين لجأوا إلى السويد بعد سقوط بلادهم في قبضة الاحتلال النازي منذ عام 1940. والأهم هو اعتقاد المخابرات الألمانية وعملائها في العاصمة السويدية بأنها ليست سوى عميلة ماهرة وحسناء من الحسناوات اللاتي تستخدمهن أجهزة المخابرات البريطانية في ساحات العواصم الأوروبية ـ القليلة ـ المحايدة في جمع المعلومات والقيام بأنشطة سرية تحت ستار اللهو وإدارة رؤوس الرجال في المرابع الليلية.

غير أن أبرز الشائعات التي ترددت عنها وأصبحت حديث الأوساط الدبلوماسية الغربية في ستوكهولم أكدت وبما يشبه الحقائق أنها عميلة مزدوجة تقوم بدور كبير في تسليم زعماء المقاومة الدنماركية الهاربين إلى أيدي السلطات الألمانية خاصة بعد أن عرف عنها أنها ومنذ صيف عام 1943 قد أصبحت عشيقة لرجل الأعمال الألماني هورست جيلبيرت (54 عاماً) والمقيم في الدنمارك ليشرف

على عمله في إدارة مكتب التلغراف الإسكنديناڤي، رغم أنه في الحقيقة كان يعمل في جهاز المخابرات الألمانية «الابفيهر» برتبة ميجور ويشغل منصب مدير «الدائرة السادسة في هذا الجهاز» المختص بجمع أدق التفاصيل والمعلومات العسكرية والوثائق السرية عن جيوش قوات الحلفاء، ومكافحة أنشطة جواسيسها وعملائها في ساحات شاسعة من البلدان الأوروبية التي سقطت تحت مظلات الاحتلال النازي.

ومع حلول خريف عام 1943 ازدادت الرحلات التي كانت تقوم بها الحسناء ذات الشعر الأحمر والعينين الزرقاوين الصافيتين والقوام الممشوق، جين هورني بين ستوكهولم وكوبنهاغن بحجة لقاء عشيقها هورست جيلبيرت المقيم في العاصمة الدنماركية.

غير أن المثير، كان في الوسيلة التي استخدمتها جين هورني في رحلاتها تلك، والتي لم تكن تستخدم فيها وسائل المواصلات الطبيعية المفتوحة بين البلدين، ولكنها كانت تلجأ إلى استخدام وسائل المواصلات السرية التي أنشأها زعماء المقاومة الدنماركية لتهريب السلاح، واستقبال اللاجئين بين مدينتي كاتيجات وسكاجيراك، الأمر الذي كان يطرح المزيد من علامات الاستفهام والغموض خلال العلاقات التي ربطتها بزعماء المقاومة الدنماركية، وأجهزة المخابرات الألمانية، وعملاء الغستابو المعروفين في العاصمة السويدية ستوكهولم، وكان أحدهم يدعى «هوفمان» ويعرف عنه أنه المكلف بمكافحة أنشطة جماعات المقاومة الدنماركية ومطاردتهم في أنحاء السويد وسدّ المنافذ عليهم، وقطع شبكات الاتصال بينهم وبين عملائهم في داخل الأراضي الدنماركية التي تحتلها القوات النازية.

ومع مطلع عام 1944 اتخذت حركة الجاسوسة الحسناء الغامضة جين هورني منحى آخر مع تكرار زياراتها للعاصمة الألمانية والخروج منها إلى عدة عواصم أوروبية محتلة مزودة بوثائق مرور مزورة، تعددت فيها جنسياتها والمعلومات المحدودة المدونة عنها، وإن حملت جميعها صورتها الشهيرة والمعروفة بها في المرابع والنوادي الليلية في ستوكهولم.

وعقب قيامها بإحدى هذه الرحلات المتكررة إلى برلين وعودتها منها إلى العاصمة السويدية، ترددت الشائعات في الأوساط الدبلوماسية الغربية أنها قامت بتهريب بعض المعلومات عن أنشطة المخابرات العسكرية الألمانية إلى السلطات السويدية، حيث قامت هذه بدورها في تسليم المعلومات التي حصلت عليها من جين هورني إلى دوائر المخابرات الغربية وخاصة المخابرات البريطانية.

فجأة انتقل إلى العاصمة السويدية حديثاً من لندن، ملحق عسكري شاب على درجة كبيرة من الوسامة في شهر آذار (مارس) عام 1944، وبدأ كغيره من الدبلوماسيين الغربيين الشبان في التردد على النوادي الليلية في ستوكهولم يقطع داخلها حدة الملل في البقاء في عاصمة مفتوحة تبدو كما لو كانت في جزيرة معزولة عما يحيط بها من حصار مدمر للساحة الأوروبية بأجمعها. وبصورة مجهولة وأسلوب محكم حدث أن وقعت الحسناء ذات الشعر الأحمر جين هورني في هوى الملحق العسكري البريطاني الشاب (والمجهول الاسم حتى اليوم) فقد كان يدعى حيناً «بيل» وحيناً آخر «رون» وإن كانت تناديه أمام أصدقائها الكثيرين «تيد» ولم يكن اسمه في الحقيقة أي واحد من هذه الأسماء التي عرف بها أو رددتها جين هورني أمام الأصدقاء.

وأصبح مشهد جين هورني والملحق البريطاني الشاب واحداً من المشاهد المألوفة في النوادي الليلية في ستوكهولم طوال عدة أشهر لا يفترقان فيها، ويطرحان بظهورهما المتكرر صورة عاشقين متيّمين يثيران تعاطف ومودة كل من يلتقي بهما أكثر مما يثيران علامات الشك في صدور عشرات الجواسيس والعملاء الذين يترددون على تلك النوادي الليلية في ستوكهولم.

كما بدا واضحاً أن الأنثى السويدية الحسناء قد استكانت، وخفت نشاطها المحموم وتعطشها إلى صحبة البارزين من الرجال بعد أن عثرت على فتاها البريطاني الوسيم القادم حديثاً إلى ستوكهولم.

ولكن ـ فجأة أيضاً ـ وبعد ما يقرب من الأشهر السبعة على تلك العلاقة الغرامية المحمومة التي جمعت بين جين هورني والملحق البريطاني الوسيم، قطع علاقته بها واختفى من النوادي الليلية، بل من الساحة السويدية كلها بعد أن تلقى استدعاء عاجلاً بالعودة إلى لندن.

ومع اختفائه، طغى الذهول والكآبة على عشيقته التي بدا أنها لا تعرف سبباً للاختفاء أو حقيقة عودته إلى بلاده إلا بعد فترة طويلة اختفت هي أيضاً خلالها من الظهور في النوادي الليلية، وأصبح واضحاً أن العشيق الوسيم كانت قد دفعته المخابرات البريطانية إلى الساحة السويدية لجمع أدق التفاصيل والمعلومات عن الحسناء ذات الشعر الأحمر والعينين الزرقاوين الصافيتين والقوام الممشوق جين هورني، والإيقاع بها في هواه. وعندما أتمّ مهمته المكلف بها عاد سريعاً إلى بلاده كأمهر العملاء الذين يقومون بالمهام الخطرة وتحت عيون أشرس أجهزة المخابرات الألمانية وعملاء الغستابو وشباك الحسناوات من النساء عميلات أجهزتهم.

وعندما عادت جين هورني مرة أخرى بعد الاختفاء عدة أسابيع عن نوادي ستوكهولم الليلية كانت شعلة الأنوثة قد انطفأت في عينيها وبدت كياناً مهزوماً تحلق بعينيها في مجهول بعيد لا تعرف أسراره أو القدرة على استخدام مواهبها السابقة في تفسير أسطورة العشق التي جمعتها مع فتاها البريطاني، الدبلوماسي الشاب الذي ظهر واختفى فجأة من حياتها.

بدت جين هورني في تلك الآونة من شتاء عام 1943، أكثر ميلاً لتوجيه اهتمامها بالبارزين من عملاء الألمان ورجال الغستابو المعروفين، وفي محاولة لتطهير صدرها من مشاعر الحب الجارف الذي ربطها بالضابط البريطاني المجهول.

ولكن رجال المخابرات السويدية كانت قد ازدادت شكوكهم حول جين هورني ونشاطها المثير لعلامات الاستفهام، وعلاقاتها المتشعبة بالعديد من العملاء والجواسيس المعروفين، خاصة بعد أن أكدت معلومات جماعات المقاومة الدنماركية التي كانت تتخذ من العاصمة السويدية ستوكهولم مقراً لها أن جين هورني أصبحت أداة طيعة في أيدي عملاء الابفيهر والغستابو للإيقاع برجالهم والتجسس لحساب النازي في الساحة السويدية.

ولم تتردد المخابرات السويدية في الإسراع بإلقاء القبض على جين هورني واصطحابها إلى أحد مراكز الاستجواب، والتحقيق معها حول أنشطتها المتشعبة في بلادهم. وبعد ثلاث أسابيع من الاستجواب المكثف مع الحسناء ذات الشعر الأحمر أفرجت عنها السلطات السويدية صباح 13 تشرين الأول (أكتوبر) عام 1944 وإخلاء ساحتها من أي شكوك أو اتهامات وجهت إليها بعد التأكد من

أنها لا تعدو أن تكون أنثى تثير اهتمام الرجال وتبيع الهوى للقادرين على الاحتفاظ لها بذلك المستوى الباذخ من الحياة في النوادي الليلية وتكاليفها الباهظة في زمن الحرب. ولكن رغم هذه «البراءة» التي حصلت عليها جين هورني من المخابرات والسلطات السويدية ظل كبار المسؤولين عن جماعات المقاومة الدنماركية في ستوكهولم على قناعة بأنها جاسوسة ماهرة وعميلة مدربة حتى النخاع لحساب المخابرات الألمانية، وأنه يتوجب اقتلاعها بأي ثمن من الساحة السويدية وتكثيف عمليات متابعتها وفرض مظلة ثقيلة من عيون رجالهم على تحركاتها مهما كانت طبيعية.

وفي صباح السادس عشر من كانون الثاني (يناير) 1945 وصلت إحدى فرق الإعدام التي تضم سبعة من رجال المقاومة الدنماركية إلى العاصمة السويدية ستوكهولم ومن عدة مناطق معقدة تحيطها أقصى إجراءات السرية، وبهدف واحد هو الحصول على رأس ذات الشعر الأحمر التي سيطرت بنشاطها داخل مجتمع الجواسيس والعملاء الدبلوماسيين الأجانب ورجال الأعمال سنوات طويلة، حانت لحظة القصاص منها وتنفيذ الحكم الصادر بحقها من قوى المقاومة الدنماركية.. بإعدامها.

في ذلك الصباح الباكر من شهر كانون الثاني (يناير) عام 1945 لم يكن صعباً على اثنين من أعضاء فرقة الإعدام الدنماركية العثور على مقر إقامة جين هورني وإقناعها بمزاعم - غير معروفة حتى الآن - اصطحابهما إلى محطة السكك الحديدية المركزية في ستوكهولم حيث استقلوا ثلاثتهم منها قطار الليل إلى مدينة مالمو، التي تم حجز عدة غرف متجاورة في فندق «غراند هوتيل» بها.

في مساء اليوم التالي شوهدت امرأة ذات شعر أحمر تغادر

الفندق بصحبة أحد الرجال الدنماركيين ـ كما اعترف موظفو الفندق فيما بعد ـ كما شوهد زميله الآخر في محطة قطارات سكك حديد مالمو يستعد للإقلاع بالقطار المتجه إلى العاصمة السويدية ستوكهولم، فيما ظلت الغرف الثلاث المحجوزة والمدفوعة الثمن مقدماً باسم جين هورني وزميليها لمدة أربعة أيام، عندما اكتشفت إدارة الفندق اختفاءهم منها دون المعتاد في مثل هذه الفنادق الكبيرة.

والحقيقة المعروفة حتى الآن هي أن أحد أفراد المقاومة الدنماركية الذي وصل في صحبة جين هورني عند وصول ثلاثتهم إلى فندق غراند هوتيل، كان هو نفسه الذي لوحظت مغادرته للفندق مع إحدى الفتيات التي ارتدت نفس الملابس التي كانت ترتديها جين هورني الحقيقية وتغطي رأسها بباروكة شعر حمراء مشابهة لرأس جين هورني، في الوقت الذي كان فيه عناصر أخرى من رجال المقاومة الدنماركية يقومون بتهريبها من الأبواب الخلفية للفندق والاختفاء بها في مدينة مالمو إلى أن شوهدوا في صباح 19 كانون الثاني (يناير) 1945 يستقلون قارباً بحرياً يتجه نحو الشواطىء الدنماركية. وفي منتصف الطريق التقى القارب بأحد قوارب الصيد الدنماركية حيث تمت عملية الانتقال من القارب الأول إليه والانطلاق به في عرض البحر دون أن يلحظ أحد سوى بعض الصيادين الذين أدلوا بأقوالهم فيما بعد ووصفوا عملية الانتقال السريعة التي قام بها ثلاثة أو أربعة من الأشخاص بصحبة سيدة ذات شعر أحمر قبل حلول المساء.

في عتمة تلك الليلة (19 يناير 1945) تمت عملية قتل الجاسوسة الحسناء ذات الشعر الأحمر وإلقاء جثتها فوق المياه التي بدأ يكسوها الجليد. في نفس الوقت الذي كانت فيه الشرطة في العاصمة السويدية قد ألقت القبض على أحد أفراد فرقة الإعدام

الدنماركية وبدأت استجوابه حول اختفاء جين هورني. وبعد عدة أيام من التحقيق اعترف خلالها المقبوض عليه باختطافها من قبل عناصر أخرى، عاد في نهاية التحقيق وأنكر جميع اعترافاته السابقة وزعم وقوعه تحت ضغوط الشرطة السويدية التي لم تجد مفراً من الإفراج عنه لضعف الأدلة الموجهة ضده. وفور مغادرة المعتقل اختفى من العاصمة ستوكهولم ومن السويد، كما اختفى أي أثر لمجموعته مع إغلاق السلطات السويدية ملف امرأة غامضة نشطت في النوادي الليلية في ستوكهولم خلال الحرب وعرفت باسم جين هورني. كما نفت المخابرات البريطانية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية معرفتها لجاسوسة في الساحة السويدية لها هذا الاسم أو قصة الضابط البريطاني الوسيم الذي ربطته العلاقة الغرامية معها في عام 1944.

كذلك نفى ضباط المخابرات الألمانية «الأبفيهر» الذي تم التحقيق معهم بعد الحرب العالمية الثانية وجود جاسوسة سويدية بين شبكات النساء العميلات لأجهزتهم خلال سنوات الحرب سواء في ستوكهولم أو غيرها من العواصم الأوروبية التي كانت واقعة تحت الاحتلال النازي.

ورغم إغلاق ملفات جميع أجهزة المخابرات لأطراف الصراع المسلح الذي دار في الساحة الأوروبية طوال سنوات الحرب وإنكار الجميع وجود امرأة ذات شعر أحمر وعينين زرقاوين صافيتين وقوام ممشوق عرفتها النوادي الليلية في ستوكهولم وعرفها معظم العملاء والجواسيس ورجال الأعمال الدبلوماسيين الذين عاشوا هذه الفترة في السويد، ظلت جين هورني وطوال أكثر من نصف قرن لغزاً غامضاً ليس من المتوقع إزاحة النقاب عن حقيقتها أو حتى وجودها إلى الأبد.

حرف الحاء

1 ـ حايا زايدنبرغ.

3 ـ حكمت فهمي.

2 ـ حنان ياسين ياسين.

حايا زايدنبرغ(*)
(Haya Zaydnburg)
(- 1948)

هي إحدى عميلات جهاز استخبارات «النجادة» الفلسطينية.

ففي يافا تمكن داود ياسميني، الذي كان ضابط مخابرات «منظمة النجادة» لعامي 1947 ـ 1948، من تجنيد اليهودية حايا زايدنبرغ التي كانت تعمل ممرضة في المستشفى الحكومي في يافا، وتقيم في «حولون» إلى الجنوب من تل أبيب.

هذا ويقال أن حايا كانت مغرمة إلى أبعد الحدود ومنذ سنة 1942 بداود ياسميني، الشاب الجميل المظهر والأنيق.

وعندما أقام ياسميني في فندق كونتيننتال في يافا، حيث قيادة النجادة، ازدادت علاقته بحايا، ولم تتردد هذه في قبول طلبه إليها التجسس على الهاغانا.

وعندما تحولت الحدود بين تل أبيب ويافا إلى خط جبهة لا

(*) المرجع: «الجاسوسية في العالم». تأليف مجموعة من المؤلفين. دار الحسام. بيروت. ص230 ـ 231.
ونزار عمار «الاستخبارات الإسرائيلية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ص184.

يمكن عبوره بسهولة، أصبحت معلومات حايا الدقيقة عن جميع مواقع الهاغانا في تل أبيب قطعاً نادراً، بالنسبة إلى القوات العربية.

وظلت حايا تعبر الحدود بشكل متواصل، مستفيدة من كونها يهودية وممرضة دون أي اعتراض، إلى أن كشف أمرها، ونفذت فيها عصابة «ليحي» حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص في اليوم الأول من شهر شباط (فبراير) 1948.

لكن حقيقة أسلوب كشفها، ما زالت ضائعة حتى الآن بين روايتين:

تقول الرواية أن شابة عربية موظفة في دائرة يافا، كانت تحب داود ياسميني وتغار عليه، وفي إحدى مكالماته التليفونية تمكنت تلك الموظفة من معرفة الاسم الأول للممرضة اليهودية حايا، فأبلغت صحافياً أجنبياً بما لديها من معلومات ليوصلها إلى الهاغانا.

ولم يخب ظن موظفة البريد، حيث أخبر الصحافي الهاغانا بقصة الجاسوسة اليهودية حايا، لكن هؤلاء تأخروا في التوصل إلى هويتها الكاملة وعندما عرفوها، وحاولوا القبض عليها، عثروا عليها جثة هامدة في مؤسسة دفن الموتى اليهودية. وقرأوا خبر إعدامها في بيان ألصقه أعضاء عصابة ليحي على جدران تل أبيب.

أما الرواية الثانية فتقول أن جهاز الاستماع التابع لعصابة ليحي، تمكن يوم 30 كانون الثاني (يناير) 1948 من التقاط مكالمة بين حايا وياسميني، الذي طلب من الجاسوسة إدخال سيارة متفجرات إلى قلب تل أبيب، فوعدت هذه بالتنفيذ خلال يومين.

وهنا أيضاً لم يعرف إلا الاسم الأول للجاسوسة، فأجرت عصابة ليحي سباقاً مع الزمن، وتوصلت إلى هوية حايا الكاملة

وعنوانها، فذهبوا إلى بيتها، وطلبوا إليها مرافقتهم بعد أن قدموا أنفسهم كأعضاء في الهاغانا وليس في ليحي، وذلك في مطلع شهر شباط (فبراير).

«... وأحضرت حايا إلى بيت منفرد قرب هدار ـ رماتايم (شمال تل أبيب) حيث حقق معها، فاعترفت، وأعدمت بطلق ناري».

حكمت فهمي(*)

(Hikmat Fahmi)

(-   )

هي إحدى عميلات المخابرات الألمانية في مصر، حيث كان لها دور هام وأساسي في انتزاع الكثير من المعلومات من الضباط البريطانيين وإيصالها إلى قيادة المخابرات الألمانية، عبر رئيس شبكتها في مصر المدعو «جون أبلر»، لاسيّما خطة القيادة البريطانية بشأن معركة «العلمين» الشهيرة ضد الماريشال روميل، بعد أن تمكنت من استدراج أحد كبار الضباط القادة البريطانيين إلى مسكنها وحصلت من خلاله على ذلك، دون أن تتمكن قيادة المخابرات الألمانية من الاستفادة منها نظراً لكثافة أعمالها وتأخير وصولها؛ وهذا ما ساهم في خسارة روميل ليس لمعركة العلمين فقط، بل لكل ما خلفته من تطورات على صعيد شمال أفريقيا خاصة، والحرب بشكل عام.

فماذا عن دور حكمت فهمي هذه؟ وكيف كانت تعمل شبكة المخابرات الألمانية في مصر من خلال رئيس الشبكة جون أبلر؟

كان رئيس هذه الشبكة أحد الألمان الذين ولدوا في مصر،

(*) المرجع: د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية». دار الوثبة. القاهرة. د.ت. ص112 ـ 116. وأيضاً: سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». دار الحياة. بيروت. 1982.

ونشأوا فيها، وتجنسوا بجنسيتها، واستوعبوا تقاليدها وعاداتها ولغتها العربية، ويسمى جون أبلر وكان اسمه المصري المعروف به هو حسين جعفر. ولعل ما سبق يفسر أسباب اهتمام المخابرات الألمانية بتجنيده للعمل لصالحها، إذ تتوافر فيه جميع الصفات الضرورية لعميل يتخذ من المجتمع المصري ميداناً لنشاطه دون التعرض لخطر اكتشافه من جانب أجهزة مقاومة التجسس البريطانية أو السلطات المحلية.

لم تحل النشأة المصرية لجون أبلر وزواج أمه من محامي مصري دون النظر بعين الاهتمام لكل ما يجري في ألمانيا والتحمس له واعتبار نفسه ألمانياً قبل كل شيء، لذلك فقد تقبل التجنيد الذي عرض عليه في بيروت عام 1938 برضى، وأصبح الجاسوس الأول لروميل في الشرق الأوسط.

وقبل أن يصبح أبلر العميل الذي يعتمد عليه روميل تماماً في تغطية احتياجاته أثناء زحفه المنتظر إلى القاهرة، قام بممارسة بعض الأعمال الأخرى لصالح المخابرات الألمانية، فحينما فشل رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء العراقي في تنفيذ الانقلاب الذي دبره ضد الاحتلال البريطاني في بداية الحرب هرب إلى تركيا، ولم تسمح له الأخيرة بالسفر خارج أراضيها تحت ضغط من لندن. وكان لدى الأجهزة الألمانية في ذلك الوقت رغبة في الاستفادة من وجوده لديها في الحرب الإذاعية التي تشنها ضد النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط.

وتحقيقاً لهذه الرغبة قامت المخابرات الألمانية بتكليف أبلر بالذهاب إلى اسطنبول للعمل على نقله إلى ألمانيا، رغم إحاطته بالحراسة من جانب كل من الشرطة التركية والعملاء البريطانيين.

ونظراً لتوافر تشابه ظاهري بين الكيلاني وأبلر، تمكن الأخير من دخول مسكنه وتهريبه. وقد استطاعت ألمانيا في اليوم التالي مباشرة لوصوله إلى برلين استخدامه في البرنامج الإذاعي الموجه ضد بريطانيا.

وقد قام أبلر بتنظيم محاولة أخرى لإنقاذ اللواء عزيز المصري الذي كانت له اتجاهات وطنية معارضة لنظام الحكم القائم والاحتلال البريطاني، إلا أن الظروف غير المواتية أو ما يسمى بالحظ السيء حال دون ذلك.

احتياجات روميل من الشبكة

حينما اشتدت حاجة الفيلد مارشال روميل للحصول على المعلومات الخاصة بنوايا بريطانيا المقبلة تجاه تحركاته اللاحقة لانتصاراته المتوالية عليها في شمال أفريقيا، اختار أبلر للقيام بهذه المهام وودعه بنفسه حتى مشارف الصحراء الليبية في طريقه إلى مصر، بعد تكليفه بتغطية الاحتياجات التالية:

* المعلومات الخاصة بالخطط البريطانية وعدد القوات وتسليحها خاصة الدبابات والمدفعية.

* المواقع الدفاعية التي ستتخذها القوات البريطانية عند هجوم القوات الألمانية على الدلتا.

* ما إذا كان بالجيش المصري ضباط على استعداد لمعاونة جيش روميل لدى دخوله الأراضي المصرية.

* أسماء القواد البريطانيين الجدد، الذين سيتولون قيادة القوات البريطانية.

سعى أبلر بعد نجاحه في دخول الأراضي المصرية عبر الصحراء الغربية إلى البحث عن مصادر المعلومات والأماكن التي يمكن أن تساعده في تحقيق أهدافه، وأدرك أن صالات الرقص، والنوادي الخاصة والعامة التي يرتادها الضباط البريطانيون هي خير وسيلة لذلك. ولكنه أدرك أن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للنوادي الخاصة بالضباط بعد تجربة غير موفقة له في إحداها. لذلك فقد ركز نشاطه على النوادي الليلية، وقام بتجنيد إحدى الراقصات المصريات التي تعمل في واحد منها وتدعى **حكمت فهمي**، وكانت تربطه علاقات سابقة معها خلال إقامته في مصر قبل تجنيده.

الدور الذي لعبته حكمت فهمي

لا شك أن الدور الذي لعبته حكمت فهمي من خلال الشبكة الألمانية كان دوراً أساسياً، بل أن قيمة الأعمال التي حققتها قد فاقت ما قام به أبلر نفسه، ويدل على ذلك:

* إقامتها باستمرار لحفلات ساهرة في مسكنها للضباط البريطانيين وإمدادها لرئيس الشبكة بكافة المعلومات التي استمعت إليها من أحاديثهم خلال اللحظات التي يفقدون فيها السيطرة على أنفسهم بتأثير الخمر وغيرها.

* استدراج أحد كبار الضباط البريطانيين المتعلقين بها إلى مسكنها، بعد أن علمت أن في حوزته أوراق خاصة بالسياسة الدفاعية البريطانية، والتي اتضح بعد اطلاع أبلر عليها أنها تحمل أعلى درجات السرية (سري للغاية) وتحتوي على كافة المعلومات التي يحتاجها روميل (بيانات تفصيلية عن كل وحدة بريطانية في الصحراء الغربية وعن الألغام والذخيرة والمدفعية التي ستصل إلى الجبهة ـ أسماء

تشكيل اللواء الأسترالي والنيوزيلندي الذي سيعزز القوات البريطانية هناك ـ بيانات عن آخر موقع دفاعي سيقام عند العلمين. . .).

وهذه المعلومات كما ذكر أبلر نفسه كانت تمثل المفتاح إلى القاهرة، ويمكن بواسطتها أن يسيطر روميل على جميع دول شمال أفريقيا.

تقييم أعمال الشبكة

بقدر ما كان لحسن الحظ دوره الكبير في خدمة بعض الأعمال الهامة للشبكات السوفياتية والبريطانية والأميركية، بقدر ما وقف سوء الحظ عائقاً في سبيل نجاح أعمال الشبكة الألمانية في مصر ـ إذ أنه رغم حصولها على هذه الأوراق الهامة شاءت الظروف غير المواتية أن تحول دون إرسالها إلى روميل في الوقت المناسب ليستفيد منها في عملياته ضد القوات البريطانية. فعندما أخطر أبلر محطة الاستقبال اللاسلكي الألمانية بأن لديه رسالة مطولة هامة يرغب في إرسالها، جاءه الرد بأنها مثقلة بالعمل ولن تتمكن من استقبال رسالته إلا بعد أربع وعشرين ساعة. وكانت هذه الفترة كافية لأن تستكمل الأجهزة البريطانية المضادة تحرياتها عن الشبكة والقبض على أعضائها.

وطبيعي، أنه لو تم الاتصال اللاسلكي بالجهات الألمانية المسؤولة وفقاً للظروف العادية، لكانت الصورة النهائية لمعركة العلمين تختلف عن الصورة التي حدثت بها، وهو ما قد يكون له آثار أخرى على المعارك الحربية التي جرت بعد ذلك. فضلاً عن أن هذا الاتصال كان من الممكن أن يحول دون استعمال المخابرات البريطانية للشفرة وجهاز اللاسلكي الخاص بالشبكة في إرسال معلومات خاطئة إلى القيادة الألمانية في شمال أفريقيا، توضح فيها أن خطوط الدفاع

النهائية للقوات البريطانية ستكون في علم حلفا، بينما كان موقعها الحقيقي في العلمين (يلاحظ أن المخابرات البريطانية استخدمت في هذا الشأن نفس الأسلوب الذي اتبعته المخابرات الألمانية في عملية انجلند شبيل).

وإيضاحاً للحقيقة فإن سوء الحظ ليس المسؤول وحده عن عدم التوفيق الذي قابلته الشبكة، فقد كان لأخطاء الأمن التي ارتكبتها أثر في التعجيل بالقبض على أفرادها، وعدم إتاحة فسحة من الوقت أمامها لإرسال المعلومات التي في حوزتها. وسنتعرض فيما يلي لهذه الأخطاء على أن نأخذ في اعتبارنا أن هناك أهمية أكبر من مجرد تناولها أي النظر إليها كدروس مستفادة يجدر مراعاتها دائماً في المواقف المماثلة.

* مجازفة أبلر بدخول نادٍ خاص بالضباط البريطانيين مرتدياً زياً خاصاً بأحد الملازمين، دون التمسك بالعرف الجاري وقتئذ بين الضباط البريطانيين والذي كان يقضي في خطوطه العريضة بأن يدفع صاحب الرتبة الأعلى نفقات المشروبات وخلافها. وقد بادر العميل الألماني بدفع أثمان كأسين من الشراب تناولهما مع رائد بريطاني مما أثار ريبة الأخير وجعله يتصل بالمخابرات البريطانية ويبلغها عن شكوكه في حقيقته. وقد تم التحفظ لذلك على النقود التي دفع بها الشراب، واتضح بعد فحصها أنها مزيّفة. وكان هذا الخطأ بداية النهاية للشبكة الألمانية. إذ أعطى المخابرات البريطانية أول دليل استرشدت به للقبض بعد ذلك على الشبكة بعد سلسلة من التحريات الواسعة التي جندت لها كافة أجهزتها.

* الإسراف في إنفاق الأموال المزيّفة التي كانت لدى الشبكة،

مما أثار الشك حول المصدر الذي تحصل منه عليها. وهذا الخطأ كبير من وجهة نظر الأمن، إذ يجذب بسهولة كل من أجهزة المخابرات المضادة، وأقسام مكافحة تزييف النقد إلى الأشخاص الذين ينفقون مثل هذه الأموال، وبالتالي فإن أعمال أية شبكة تتعرض للانهيار حتى قبل أن تبدأ في حالة استخدامها للنقود المزيفة في تغطية مصروفاتها.

* تورط أبلر في إقامة علاقات نسائية متعددة أدت في النهاية إلى وقوعه في حبائل إحدى النساء (يهودية الديانة) التي كانت لها صلات بالمخابرات البريطانية وبالوكالة اليهودية. ولم يكلف رئيس الشبكة نفسه عناء التحرّي عنها، أو حتى سؤالها عن الجانب الآخر من حياتها، رغم طبيعتها الصامتة التي تثير الشك لدى رجل مثله، يعمل في ميدان يفرض عليه الحذر والريبة في كل ما يدور حوله.

* عدم الحرص على إخفاء الأدوات التي تستخدم في تسيير عمل الشبكة، في أماكن يصعب العثور عليها (ترك كتاب الشفرة على أحد المكاتب مما أدى إلى نقل الكود الوارد به بواسطة المرأة اليهودية) وهو ما يعتبر إخلالاً جذرياً بأبسط قواعد الأمن.

* هناك حدث آخر وهو تفوّه العميل الألماني ببعض العبارات الألمانية أثناء نومه وفي حضور المرأة اليهودية، رغم أنه من المفروض ألا يتحدث بها مطلقاً. وفي الواقع فإن الهدف من الإشارة إلى هذه الملاحظة ليس حصرها ضمن أخطاء الأمن التي وقعت فيها الشبكة، أو التعسف في تطبيق مفهوم تعاليم الأمن، وإنما إيضاح أهمية مراعاة الساتر الذي يعمل في ظله رجل المخابرات في كل الظروف والأحوال، وأن يحول بينه وبين أي ظروف تجعله يفقد السيطرة على

تصرفاته (تجنب المواد المسكرة والمخدرة ـ عدم النوم مع أشخاص ليسوا موضع الثقة ـ عدم الاستجابة لإثارة متعمدة من جانب الغير. . .).

* ويقال أيضاً أن أبلر عمد مرّة إلى إشعال سيكارة حكمت فهمي بورقة نقدية من فئة المائة جنيه، مما لفت الانتباه والشكوك حوله. . . لاسيّما من بعض رجال المخابرات العدوّة. . .

حنان ياسين ياسين(*)

(Hanan Yaseen Yaseen)

(1963 -)

هي إحدى عميلات المخابرات الإسرائيلية في لبنان، وزوجة العميل أحمد الحلاّق الذي أعدم في بيروت.

وقد نزحت العميلة حنان ياسين ياسين (والدتها حياة صيداوي، مواليد تعلبايا، قضاء زحلة، في العام 1963 رقم السجل 50 تعلبايا) عن عاطفتها، واستبدلت رقّة الأمومة ورأفتها بقلب ميت لم ينبس بخفقة أو نبضة واحدة خلال اشتراكها بملء إرادتها وبكامل حقدها الدفين على أخيها الإنسان، في ارتكاب جريمة صفير مع زوجها أحمد الحلاّق، فضحكت على فزع لمنظر تطاير الأشلاء كمن أصيب برصاص الجنون الحي.

اسمها حنان ولكن فعلها شيطان. تقمّصت القتل سبيلاً إلى الاسترزاق من دون بركة ومن عدو لئيم ومتى كان العدو عطوفاً؟ فصار الخوف قوتها المتشدّق إلى التهامها وأسلمت روحها إليه حتى صدئت واهترأت ولفظها المجتمع الحرّ والأبي.

(*) المرجع: علي الموسوي «شبكات الوهن ـ عملاء إسرائيل في قبضة القضاء». الجزء الأول. دار الهادي. بيروت. الطبعة الأولى 2001. ص37 ـ 40.

كانت حنان بما لها من نفوذ وسطوة على بعلها وحظوة لديه، مطّلعة على مجريات التخطيط والتنفيذ وإرهاب الناس وتولّت مساعدته، من دون ضغط أو إكراه، في سلوك سكّة الإجرام، أولاً، عبر تمتين الاتصال بالاستخبارات الإسرائيلية من أجل الفوز بدراهم أودعت مصرف النسيان في نهاية المطاف، حتى أنها سافرت بدلاً منه إلى قبرص لمجالسة الضابط «داني» ومحادثته بشأن استمالة بشير القرعوني وتسليمه خطيطة الموت، وثانيهما عبر تشجيعها له بمشيها معه خطوة خطوة من دون افتئات، إلى طريق الانتحار لتفجير العبوة الناسفة من دون أن تأبه لخطورة هذا التدخّل وهذا التحريض.

روت حنان ياسين قصة التفجير كما صادق عليها زوجها بلسانه وأضافت أنه خلال مقابلتها الضابط «داني» طلب منها أن تبلغ أحمد بالانتقال إليه على أن يرسل له إخراج قيد مزوّراً باسم عماد مشعلاني مع سائق السيارة التي ستقلّه من بلدة بعاصير وذلك لاستخدامه في الوصول إلى منطقة «الشريط المحتل» بعد إتلاف إخراج القيد المزوّر باسم ميشال دعبول في مطلع العام 1994.

أتمّ الحلاق زيارته إلى فلسطين المحتلة حيث بقي ثلاثة عشر يوماً واتصل من هناك بزوجته لتوافيه إلى المركز الطبي في بلدة بعقلين الشوفية مشيراً عليها بأن يرافقها وفيق ناصر. وصل الحلاّق عند الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر يوم الثلاثاء الواقع فيه 20 كانون الأول (ديسمبر) من العام 1994 إلى المكان المعهود. ومن دون أي تباطؤ صعد في سيارته (من نوع «شيفروليه») إلى جانب زوجته وناصر، ولم ينتظر حتى يأخذ نفساً عميقاً وهو القادم من رحلة منهكة نفسياً وبدنياً وذهنياً وسمعته حنان يقول: «كل شيء جاهز».

وفيق: «عال، شو جبت مصاري؟».

أحمد: «سبعة آلاف دولار».

وفيق: (باستغراب واضطراب) «بسّ هالقد؟».

أحمد: «هيدي دفعة، والباقي جاهز باسمي برّا. وما فيّي طيلعت أكتر من هيدا المبلغ الكبير».

وفيق: «كم ستدفع لي؟».

أحمد: «خذ هذا مبلغ 2900 دولار هل يكفي؟».

انتهى فصل النقاش المادي وشرع الجاسوسان المحنكّان في الغوص عميقاً في تحضيراتهما لاغتيال مغنيّة. وضّبت حنان أمتعة التمويه من ألبسة لطفلها وزوجها في حقيبة اليد الجلدية ذات اللون الأسود كالتعصّب الإسرائيلي والتي جلبها زوجها معه هدية تاريخية من جهاز «الموساد» مع جهاز تفجير لاسلكي مخبأ في قعرها بطريقة سريّة لا يلحظها المرء بسهولة.

مرّ الثلاثة، الحلاق وزوجته ووفيق، ليلاً بالقرب من المعمل الخاص بالشهيد مغنيّة فوجدوه بداخله وسمعت حنان وفيقاً يقول: «هيدا فؤاد قاعد بسيارة ب.أم. سودا 700 مع صاحبو، يلّلا نفّذ الخطة».

أحمد: «ما فينا لأنهم قالوا لي بأنو فؤاد لازم يكون قاعد وراء المكتب ومش برا».

عادوا أدراجهم خائبين، وتفرّقوا على أمل اللقاء في صباح اليوم التالي. لكن وفيق ناصر خيّب الظن واختبأ في «تتخيتة» منزله ولم يملك الشجاعة الكافية لمواجهة الحلاق الذي سأل عنه مراراً وتكراراً

من دون أن يعثر عليه حتى فقد صوابه واستشاط غضباً وطلب من زوجة وفيق أن تخبره عند قدومه وعلى لسانه بأنه «جبان واطي»، وذهب متوتّراً ترافقه زوجته لاقتراف جريمته.

في صباح اليوم التالي لم يجد الحلاق في المكتبات إلاّ صحيفة «الأنوار» فاشترى عدداً واحداً منها وتصفَّحه مليّاً باستعلاء متأمّلاً في صور تدلّت من وحشيته التي نمّاها العدو الإسرائيلي. وركب في سيارته مع زوجته باتجاه بلدة بعقلين للحاق بالسيارة المولجة بنقله إلى منطقة «الشريط المحتل» باعتبار أن ثمة سيارات مختلفة الأنواع والمواصفات كانت تنتظره حسب الاتفاق الموقّع شفهياً مع الإسرائيليين، بين الساعة الواحدة والساعة الثالثة يومياً على مدى أسبوع كامل. فوصل عند الساعة الواحدة والدقيقة العاشرة واستقل سيارة عمومية من نوع «مرسيدس» صفراء اللون إلى حيث كانت تقبع قوات الاحتلال الإسرائيلي.

عادت حنان ياسين إلى منزلها في بلدة برجا وطلبت من ولديّ زوجها وهيبة وهيثم (مواليد العام 1980) توضيب أغراضهما والذهاب إلى منزل والدتهما التي تقطن مع زوجها في مخيم عين الحلوة في مدينة صيدا، «وكنت أنوي الحضور إلى بيروت والسفر إلى قبرص مع وفيق ناصر لأن زوجي قال لي: «بتخليه يسافر معك وأجرو قبل أجرك بالطيارة». وبالفعل أوصلت الولدين هيثم ووهيبة إلى طريق صيدا وأعطيتهما مبلغ 300 ألف ليرة كمصروف، ثم طلبت من محمود الحلاق ابن سلفي شفيق مرافقتي إلى بيروت للاتصال بوفيق، وقصدت منزله وطلبت منه تدبير أمر سفرنا، واقترح الذهاب إلى منزل شقيقة زوجته ابتسام عبد الله التي تعمل في مكتب سفريات وهي تتدبر الأمر، فذهبنا إلى منزلها في الطريق الجديدة قرب المدينة الرياضية وأخبرناها

عن رغبتنا بالسفر وبإلحاح، وادعيت لها أني أريد تمضية العيد في قبرص، كذلك ادّعى وفيق نفس الشيء، واتصلت من منزلها بأحد مكاتب السفر وحجزت لنا تذكرتين إلى قبرص بتاريخ 23 ـ 12 ـ 1994 الساعة 12,30 ودفعت أنا لها مبلغ 700 دولار ثمن التذكرتين لأن وفيق لم يكن يحمل مالاً وعدنا كل إلى منزله، وعاد معي محمود الحلاق لكي أحضر أغراضي بسيارة رفيق له أجهل اسمه لأني كنت قبلها قد كلّفت محمود بإيصال سيارتي «الشيفروليه» البنية إلى منزل أهلي في تعلبايا وأعطيته مبلغ خمسين ألفاً للعودة بسيارة «تاكسي»، فذهب وعاد قبل انتهائي من عملية حجز التذاكر. ثم ذهبت إلى برجا وأحضرت أغراضي وأمتعتي للسفر وعدت ليلاً إلى الطريق الجديدة مع محمود ورفيقه، وعند وصولنا كانت عناصر أمنية قد ضربت طوقاً حوله وعملت على توقيفنا، وهذا كل ما حصل معي بالتفصيل».

المحقّق: كم مرة قابلت ضباطاً إسرائيليين ومن هم وأين تمّ اللقاء؟.

حنان: لقد قابلت الضابط «داني» مرتين في قبرص حيث كان ينتظرني في المطار، ويرافقني إلى فندق «أري ماثاج» في ليماسول والهدف تزويده بالمعلومات كما ذكرت وكان «داني» يعطيني رقم هاتف السفارة الإسرائيلية في نيقوسيا للاتصال به عند الضرورة وأذكر الرقم (445195) لكني لم أتصل على هذا الرقم لأنهم كانوا يحضرون إلى الفندق ويصطحبوني معهم.

المحقق: هل بإمكانك إعطاءنا أوصاف الضابط «داني» وميزاته؟.

حنان: نعم، إنه في سنّ الـ 45، قصير القامة، بدين، أبيض

الوجه، أصلع من وسط الرأس وشعره طويل حتى كتفيه، لون شعره أحمر، يرتدي دائماً نفس الثياب بزَّة كحلية، يتكلم اللغة العربية بطلاقة وبلهجة فلسطينية.

المحقّق: هل تعرفين شيئاً عن المغدور فؤاد مغنية؟

حنان: كلا، فكل ما أخبرني به زوجي هو أن فؤاد مسؤول في «حزب الله» ولا شيء غير ذلك.

المحقق: أين حصل تبادل الحديث بين زوجك ووفيق ناصر عن قضية اغتيال فؤاد مغنية وماذا دار بينهما؟.

حنان: عندما ذهبت أنا ووفيق للقاء زوجي في بعقلين بتاريخ 20 ـ 12 ـ 1994 عند عودته من «إسرائيل» لم نذهب مباشرة إلى المنزل بل ذهبنا إلى مطعم «عين الدلب» في ملتقى النهرين، وأثناء تناول الغداء أخبره أحمد بأن الإسرائيليين منحوه فرصة أسبوع لتنفيذ عملية الاغتيال وهو يختار الوقت المناسب على شرط أن يكون فؤاد مغنية جالساً وراء مكتبه ويقف الفاعل على بعد مسافة 50 متراً قرب عامود خشبي ثم يضغط على زر الجهاز، ليكون التنفيذ مضموناً وسليماً، كما أوضح زوجي له أنه يجهل هوية واضع المتفجرة ومكانها بالضبط. وأخبره بأنه تدرب في «إسرائيل» عند وجوده فيها مؤخراً على كيفية استخدام الجهاز وإخفائه بعد التنفيذ. لذا أراد إلقاءه في مياه البحر بعد التفجير.

المحقق: هل حاول الإسرائيليون تجنيدك بمفردك للعمل معهم خفية عن زوجك؟.

حنان: كلا لم يحاولوا ذلك بل كان تركيزهم على زوجي ورفيقيه وفيق ناصر وتوفيق ناصر وأنا كنت احتياطاً عند الضرورة

ولست مستقلة في عملي بل اطّلع على كل ما يجري من زوجي وأوافق على تصرفاته وتحركاته.

المحقق: هل لديك ما تضيفينه على إفادتك هذه؟

حنان: كلا.

حرف الدال

1 ـ دوروثي مينسك.

2 ـ دولي.

دوروثي مينسك(*)

(Dorothy Minsk)

(1943 - 1918)

تعتبر دوروثي مينسك من أبرز رموز الجاسوسية الألمانية النازية، ومن أكثرهن تفوّقاً في مختلف الاختصاصات التي خاضت غمارها.

والجدير بالذكر، أن جهاز الاستخبارات الألمانية «الغستابو» كان بارعاً في انتقاء الأكفّاء من الشباب والفتيات في جميع أنحاء ألمانيا، وبتوجيه من المستويات العليا بغية تجنيدهم في الميدان الاستخباري والتجسسي. لذلك كانت دوروثي مينسك إحدى هذه الفتيات اللواتي كان لهنّ اهتمام بارز من قادة الغستابو منذ وقت مبكر... أي منذ تفوقها في «فن الطهي» أثناء التحاقها في إحدى المدارس المخصّصة لذلك في مدينة بريسلو...

فمن هي دوروثي مينسك؟ وما المهمة التي أوكلت إليها؟

في إحدى تلك المدارس بمدينة بريسلو تفوقت دوروثي مينسك على رفيقاتها تفوقاً عظيماً، ومنحتها المدرسة في العام 1936 الجائزة الأولى في فن الطهي، وخصّها الجنرال غورنغ (ولم يكن بعد

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات»... ص: 160 - 168.

مارشالاً) بجائزة الشرف الكبرى على أنها الفتاة الألمانية الأولى التي أظهرت بين فتيات الرايخ فهماً تاماً للواجبات المنزلية. وأدركت كل الإدراك فنون الطهي والعناية العائلية.

كانت دوروثي مينسك شقراء جميلة في ربيعها الثامن عشر. جمعت إلى خَلقها الفتان ذكاء مرموقاً بوّأها المكانة الأولى بين رفيقاتها. وما كان الطهي كل ما تجيد. فقد علا كعبها في الحقل الرياضي فجاءت في طليعة الرياضيات في الشبيبة الهتلرية. وكان أهلها متوسطي الحال. فوالدها موظف يكاد معاشه لا يسد احتياجات عائلته. وعقدت العائلة على زهرتها الجميلة الندية الضحاكة أبداً الطافحة صحة ورونقاً، أكبر الآمال. وفاخرت بها بين الناس واستشفت من ورائها خيراً عميماً ومستقبلاً باهراً.

وحدث في أحد أيام تموز (يوليو)، بعد أن انتهى العام الدراسي، أن كانت العائلة منهمكة في جمع الأثاث استعداداً للسفر إلى الريف كالعادة في كل فرصة سنوية، فدخل عليها رجل صارم الوجه قال إنه آت من العاصمة ويودّ محادثة والدي دوروثي.

واعتذرت الوالدة للزائر لأنها لم تحسن استقباله بسبب اعتزام العائلة الرحيل. ولكن الرجل لم يهتم للمظاهر، وكان كل ما يريد محادثة الوالدين عاجلاً في أمر خطير.

واستطال الحديث في غيبة الفتاة. وكانت هذه تتحرق شوقاً إلى معرفة سبب الزيارة. وازداد شوقها حين سمعت اسمها يتردد في غمرة الحديث بين حين وآخر، بل ساورها القلق والاضطراب. فماذا يقصد الرجل؟ وما الغاية من هذا المؤتمر السرّي الطويل؟

فتح باب الغرفة أخيراً ووقفت دوروثي تنتظر أن تتاح لها فرصة

رؤية الزائر والسلام عليه. ولكن هذا اختفى مسرعاً بعد أن ودّع والديها. ولمّا جاءها الوالدان إلى المطبخ أحسّت أنهما في غمّ وتفكير عميق. فسألتهما:

ـ من هو هذا الغريب؟ يلوح لي أن حديثه أزعجكما. فما الخبر؟ لم تجب الأم. أمّا الأب فقد كان مبلبل الخاطر وقال لدوروثي يطمئنها أن كل ما في الأمر قضايا بسيطة تتعلق بوظيفته ولا تدعو إلى القلق أو الاضطراب.

على أن الفتاة فهمت من لهجة والدها وصمت أمها أن هناك حادثاً يحاولان كتمانه عنها. فلم تلح في السؤال وقد اعتادت الطاعة والاحترام. وكم كانت دهشتها عظيمة لمّا أخبراها في اليوم التالي أنهما ألغيا الرحلة إلى شتينو ليقوموا جميعاً برحلة أطول وأهم.

❀ ❀ ❀

سافرت العائلة بعد بضعة أيام إلى فرانكفورت على نهر الأودر. ولمّا وصلت إليها في المساء استدعي الأب إلى قاعة الفندق الذي حلّ وعائلته فيه. وبعد غياب ساعات عاد واصطحب زوجته وابنته إلى القاعة.

فوجئت دوروثي، لمّا دخلت القاعة، برؤية ذلك الرجل الذي زارهم في دارهم قبل أيام. وأخرجها والدها من تأملاتها بقوله:

ـ دوروثي! يحب الدكتور بوير مستشار الحكومة أن يتعرف بك. وأنه لشرف يولينا أياه.

انحنى الموظف الرفيع المقام للصبية وقال إنه سعيد بأن يشد على يد فتاة ألمانية جديرة بأن تنتمي إلى هذا الوطن الكبير، ويفاخر

بها الحزب الاشتراكي الوطني، وأن من دواعي افتخاره أن الفوهرر كلفه إبلاغها أنه اصطفاها مع ثلاثين فتاة ليكملن ثقافتهن ويبلغن أرفع المراتب في العلم والمعرفة.

دهشت دوروثي لقول الرجل وحارت في أمرها ولم تدر أتبتهج أم تبكي لما كتب لها. وبدت عليها بوادر فرحة تشوبها رهبة. ولمّا انصرف الدكتور بوير لم يستطع الأب أن يخفي شيئاً من الارتباك بالرغم من أنه أبدى لزوجته وابنته سروره لهذا السعد يهبط على دوروثي. وأحست الفتاة بأن أمها تحبس دمعة تترقرق في عينيها.

غادر الثلاثة فرانكفورت إلى برلين حيث قدم الدكتور بوير الفتاة إلى بعض كبار معاوني غوبلز وغورنغ، فأرسلوها إلى شتوتغارت. وهناك عهد والدا دوروثي بها إلى الكونتيسة فون ويستروم التي تعهدت بتثقيف ثلاثين فتاة ثقافة «المانية» بمعونة طائفة من المعلمين. . . وما كاد ينقضي نصف ساعة على ترك الوالدين المسكينين ابنتهما حتى عرفت هذه أنها في مدرسة للجاسوسية!

لم تثر الفتاة ولا تمردت لأنها أدركت أن كل حركة ستذهب سدى. فقد عرفت منذ العام 1933 أنظمة الجماعات النازية وعاشت في كنفها وطبعت على النظام الصارم والإدارة المتعسفة. ولذا اجتنبت كل ما ينم على سخطها وألمها. كان عليها أن تطيع وتنصاع للأوامر، ففعلت بصبر جميل وما شعر مَنْ حولها بما كانت تقاسي في قراراتها.

وساد الألم والحزن تلك الغرفة التي عاد إليها والدا دوروثي. كانا يتوقعان لابنتهما مستقبلاً زاهراً فإذا بالفوهرر يسلبهما إياها ليصنع منها جاسوسة ذميمة! وانصاعا وطأطآ الرأس، فما حيلتهما؟ وسكتا

يدفعهما ما عرف به الجرمانيون من استسلام وتهالك أطلقوا عليهما اسم نظام. . .

أظهرت دوروثي مينسك في مدرسة الجاسوسية اجتهاداً وإقبالاً على الدرس والمقدرة الفائقة التي امتازت بها بين زميلاتها في كل مضمار. وبعد سنة قضتها في الدرس والعمل في مختلف نواحي فن التجسس منحها معلموها إجازة وتعويضاً لتقضي شهرين في بولونيا تتمرن فيهما على اتقان اللغة البولونية. وفي العام 1938 سافرت إلى براغ على أنها وصيفة الكونتيسة فون ويستروم، وعينت بعد حين في مركز التجسس الألماني في دانتزيغ.

كانت مهمة دوروثي هناك اجتذاب ألوف من القرويات العاملات الصغيرات من البلاد المجاورة لبولونيا وخاصة من منطقة دانتزيغ وسيليزيا، وتدريبهن على العمل لخدمة مركز التجسس المذكور، ثم إرسالهن بصفة خادمات في العائلات البولونية للتجسس عليها لحساب الدائرة السرية الألمانية ودائرة الاستعلامات الاقتصادية وهي الدائرة التي استولت على خيرات البلاد التي احتلها الرايخ في الحرب العالمية الثانية. وقد مهدت تلك الفتيات للألمان السبيل للنهب والاحتلال. وكان مكتب التجسس الألماني في دانتزيغ يرسل منهن إلى بولونيا في كل أسبوع ابتداء من أواخر العام 1938 ثلاثمائة على أقل تقدير بعد تدريبهن بسرعة، فيندسسن في المدن التي تقيم فيها الحاميات وفي المراكز الصناعية والمناطق ذات المواقع الحربية الممتازة.

ولمّا استولى الألمان على بوهيميا ومورافيا كانت ألوف عديدة من هاتيك الفتيات قد تركزن في بولونيا ينبشن أسرارها ويرسلن

أخبارها إلى برلين بانتظار وصول الألمان. وأرسلت الدائرة السرية الألمانية عشراً من جاسوساتها الماهرات التابعات لمركز دانتزيغ إلى فرصوفيا متنكرات، فكن همزة الوصل بين الرقيبات ودوائر التجسس الألمانية.

❀ ❀ ❀

استطاعت دوروثي أن تجد لها عملاً يخفي حقيقة أمرها، عند يهودي من كبار رجال الصناعة، بصفة ممرضة. وسرعان ما أعجب بها رؤساؤها الجدد وأحبوها، كما أعجب بها رؤساؤها الفعليون الذين هنأوها بما أحرزت من نجاح في مهمتها.

وحدث ذات مساء أن تعرض لها وكيل ضابط من الخيالة البولونيين ـ وكان قد أعجب بها بعد أن صادفها بضع مرات ـ وسألها أن يرافقها. فلم ترفض. وكيف ترفض جاسوسة صحبة رجل عسكري؟

تكررت المقابلات والنزهات. وسرعان ما انقلب إعجاب الرجل بدوروثي غراماً استطابته الفتاة. وهلا تستطيب الحب صبية في الحادية والعشرين؟ وكأن دوروثي نسيت مهمتها، فبدلاً من أن تستخلص من الرجل أسراراً تفيدها في عملها راحت تنصت إليه يبثها لواعج غرامه وهيامه، وتهمس في أذنه عبارات حبها وولائها وانصياعها لما يريد.

وتصرّمت مدة على الحبيب والحبيبة وهما في نشوة وسعادة. وأسرّ البولوني إلى دوروثي أنه يريد أن يتزوجها. وتقدم في اليوم ذاته إلى العائلة التي استخدمت الفتاة وأخبرها بعزمه على الزواج. فاستدعتها، فاعترفت بأنها هي الأخرى تحب وكيل الضابط، وأن منتهى رجائها أن تؤسس بيتاً تستقر فيه. ولكنها انخرطت فجأة بالبكاء... ثم استدركت وقالت إن الزواج مستحيل. وفهمت زوجة

الصناعي من حزن دوروثي الفجائي أنها تكتم سراً يمزق قلبها. فلاطفتها لتعرف سرها، واستوضحتها ما تخفي، وسألتها عن العقبة التي تحول دون زواجها بالبولوني. وأشرقت التعسة بدمعها وراحت تروي قصتها بعبارات تقطعها الآهات والدموع.

كان اعتراف دوروثي خطيراً وكشف النقاب عن سياسة الألمان في بولونيا. وكان الصناعي نافذ الكلمة كثير المعارف، فزار رئيس أركان الحرب وأطلعه على اعتراف الفتاة. فقابله القائد بترحاب، ولكنه أعرب عن شكه في صحة الرواية. وحدث بعد هذه المقابلة أن ضرب بأقوال الرجل عرضاً وكانت دوروثي وعائلة الصناعي الضحيتين، لأن السلطة البولونية طردت الأولى فحرمت الثانية من ممرضة قديرة.

وشق المصاب على البولوني حبيب دوروثي. ولكن الأحداث تعاقبت بسرعة وأنسته مصابه بفاجعة أعظم. فقد سيق مع فرقته بعد خمسة وثلاثين يوماً من رحيل دوروثي إلى ساحة القتال بعد أن اجتاح الألمان بلاده. أما الصناعي اليهودي فقد راوده الشك في قدرة «بيك» ورئيس أركان حربه على رد عادية الألمان، بعد ما رأى من تهاونهما في قضية دوروثي واعترافاتها. فأسرع بمغادرة البلاد منذ أواخر آب (أغسطس) 1939. وبعد أسفار طويلة استقر في مدينة «كان» على الشاطىء اللازوردي مع عائلته، واجتهد في إخفاء حقيقته. ولما اجتاحت جيوش الرايخ جنوبي فرنسا لم يترك الرجل ملجأه. ولكنه بالغ في التستر كيلا يعرف الألمان أنه يهودي، فأعلن في صحف نيس أنه بحاجة إلى خادم من اللاجئات البولونيات الكاثوليكيات لأن الطابع اليهودي كان جلياً على خادمته البولونية.

وطرقت باب داره ذات صباح صبية حسناء ففتح لها البوّاب فقالت له بلهجة فيها لكنة أجنبية ظاهرة أنها جاءت استجابة لطلب صاحب الدار في إعلانه وأنها لاجئة بولونية. وبعد مخابرة مع زوجة الصناعي سمح للطارقة بالدخول... وكانت دهشة المرأة عظيمة حين رأت أن القادمة هي دوروثي مينسك.

واستردت الفتاة روعها وشرحت لسيدتها حالها فقالت:

- إنني مكرهة، بعد أن طردوني من بولونيا، على الاختباء، لأن رؤسائي لا يغفرون لي ما جهرت به.

- ولكن ما يدريهم أنك فضحت سرهم؟

- إنهم عارفون بكل صغيرة وكبيرة! ثم إنني كنت أسعى في الرجوع إلى بولونيا لأجيء بمن أحب، فتعرفت ببولونية تودّ أن تقيم في ألمانيا فتبادلنا أوراق الهوية وكان لي ما أردت. ولكن الحرب حالت بيني وبين خطيبي فلم أعثر عليه. وخفت أن يصادفني أحد موظفي الدائرة السرية، فهمت على وجهي إلى أن حططت هنا.

كانت القصة أغرب من أن تنطلي على المرأة. وأخبرت زوجها بها فقررا استخدام دوروثي لمنعها من الخروج ومحاولة الوشاية بهما. وأخطرا جميع مواطنيهما الذين يعرفانهم في المنطقة، ولكن مسعاهما لم يجد فتيلاً.

❀ ❀ ❀

في الرابع من حزيران (يونيو) 1942 انقض رجال الغستابو على منزل الصناعي البولوني وقاموا، تقودهم دوروثي مينسك، بتفتيشه فاكتشفوا مخبأ جمع الرجل فيه كل ثروته من ذهب وعملة تقدران

بملايين عديدة، فاستولوا عليها وساقوا العائلة إلى نيس ثم أبعدوها إلى حيث لا ندري!

ولا بد من أن تكون دوروثي مينسك قد قبضت مكافأة جزيلة لأنها ظلت شهراً كاملاً تتردد على المشارب والملاهي في كان ونيس وبندول. ولم تكن تلك العائلة الضحية الوحيدة للجاسوسة دوروثي، فقد أوقعت بكثيرين سواها في أيدي الألمان... ولكن ضابط الغستابو المقيم في ساناري على طريق طولون اكتشف في بستانه في أواخر العام 1943 دوروثي مينسك جثة هامدة. فقد وفاها أنصار المقاومة الفرنسيون حقها. وكان آخر العهد بتلميذة الكونتيسة فون ويستروم...

دولي (*)
(Dolly)

(-)

هي إحدى الجاسوسات الألمانيات في بلاد الإنكليز، ثم في فرنسا وفي دوائر مكافحة الجاسوسية في بلجيكا المحتلة.

لم تكتشف هوية هذه المرأة الحقيقية كزميلتها «كلو». وكل ما عرف عنها أنها كانت تسمى في الدوائر السرية الألمانية باسم «**دولي**». وقيل إنها تدعى الكونتيسة **أنييس فون غايش**، لأنها كانت تزعم أنها منبثقة من هذه العائلات الألمانية الكبيرة.

كانت دولي هذه تشبه الإنكليزيات شبهاً عظيماً، وتجيد اللغة الإنكليزية كلغتها الألمانية الأصيلة، وتتقن الفرنسية كالهولندية اتقاناً مدهشاً.

بدأت دولي العمل في حقل الجاسوسية بعد معركة شمبانيا في العام 1915. فقد وقعت رسائل عديدة منها في أيدي موظفي دوائر مراقبة البريد المتحالفة وانطلق جواسيس الحلفاء يطاردونها ويفتشون عنها. وخلطوا أحياناً بينها وبين مدموازيل دو كتور. ولكن ثبت بعدئذٍ

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات». ترجمة باسيل الدقاق. دار المكشوف. بيروت 1947، ص: 106 ـ 112.

أن هذه المرأة لم تكن يوماً في عداد ذلك المثلث الشهير من مدموازيلات «دو كتور» التي كانت آن ماري ليسر أشهرهن.

سافرت دولي العام 1916 إلى إنكلترا وقضت فيها أسابيع عديدة، ووفقت في فضح أسماء كثيرين من الجواسيس الإنكليز أو من أعوان الحلفاء. واستطاع الألمان بفضلها أن يعتقلوا في أواخر العام 1916 وأوائل 1917 جواسيس وأعواناً عديدين في المانيا وفي المناطق التي كانت الجيوش الألمانية تحتلها ولا سيما بلجيكا.

وتروى عنها الرواية العجيبة الغريبة التالية:

«حدث ذلك في العام 1917. فبينما كانت دولي عائدة إلى ألمانيا بطريق سويسرا اكتشفها جاسوس طلياني فأخبر زملاءه الإنكليز والفرنسيين بأمرها في الحال، فاعتزموا القبض عليها والتخلص من خطرها بعد أن أوقعت بكثيرين من زملائهم. ولكن عقبات كأداء اعترضتهم، أهمها أن السويسريين صارمون في مكافحة نشاط الجواسيس من أي لون كانوا ولا سيما من كان منهم يشتغل لحساب الحلفاء لأن سويسرا كانت تحت وطأة الألمان.

نزلت دولي باسم الكونتيسة فون بولهيم في أحد فنادق مدينة برن، واتصلت بفون بيسمارك الشاب الذي كان يومذاك واحداً من رؤساء شبكة التجسس الألمانية في سويسرا.

وعرف جواسيس الحلفاء أنها عازمة على السفر في الصباح بطريق البر، وأنها ستغادر برن إلى آرو لتصل إلى زوريخ ومنها تدخل الأراضي الألمانية مارة ببحيرة كونستانس. فاجتمعوا ليرسموا خطة العمل. ووجدوا أن خير السبل هو اختطاف المرأة وتخديرها، ثم نقلها بالسيارة إلى مكان أمين. واتفقوا على أن يكون سائق السيارة

أحد أعوانهم، على أن يركب السيارة اثنان منهم يدّعيان أنهما طبيبان يرافقان مريضة مشرفة.

أعدوا أوراق الهوية للطبيبين والسائق وتصريحاً بنقل المريضة وشهادة بخروجها من المستشفى وإجازة بنقلها إلى إحدى العيادات في مدينة ديفون وجوازات السفر اللازمة، وقرروا أن يهاجموا سيارة الجاسوسة بين برن وآرو.

وفي اليوم المعين، وكانت دولي عازمة على السفر الساعة الحادية عشرة، علم الجواسيس الحلفاء أن المرأة ستقابل بعض زملائها وأعوانها في المدن التي ستمر فيها، وتتحدث إليهم فتكشف القناع عن وجوه بعض الجواسيس الألمان. فبدلوا خطتهم وقرروا أن يهاجموا السيارة بين زيوريخ وكونستانس.

ركب أحدهم سيارة وامتطى الاثنان الآخران دراجتين بخاريتين وانطلقوا يطاردون الصبية مطاردة حكيمة لبقة لم تلفت الأنظار إليهم. وسارت الأمور على ما اشتهوا. وظلوا يلاحقون دولي ثلاثة أيام من مدينة إلى مدينة، ومن بيت إلى بيت. وقابلت المرأة نحو عشرة جواسيس من زملائها وأتاحت للحلفاء فرصة فضحهم، ثم غادرت السيارة زوريخ وتوجهت إلى وينترثور. وكانت الطريق المؤدية إلى كونستانس مطروقة كثيرة الحركة، فرأى المطاردون أن الانقضاض على الفريسة خطر وقد يؤدي إلى إحباط المؤامرة، ففضلوا الالتجاء إلى الحيلة والرياء.

وسمعوا المرأة تقول لسائق سيارتها أن يستعد للسفر في اليوم التالي، وأن تكون السيارة أمام الفندق في الساعة العاشرة، فقرروا استبدال سائقها بواحد منهم. وكان الطلياني يستطيع أن ينوب مكان

السائق ويتنكر بشكله ويقلّد حركاته ويوهم دولي بشيء من الدهاء والمكر أنه سائقها، خصوصاً أنه إذا لم تمعن هي النظر فيه، وإذا أجاد هو التنكر.

وقصد الإنكليزي والطلياني فندقاً صغيراً كان السائق الألماني يتناول طعامه فيه، واحتالا عليه حتى أسكراه، ثم خدّراه، ودسّا في أمتعته أوراقاً تثبت أنه جاسوس ألماني، ونقلاه إلى فندق صاحبه من أصدقاء الحلفاء، وأوصوه بأن يخبر الشرطة في اليوم التالي بأمره ليقبض عليه بتهمة التجسس.

ونقل الطلياني أوصاف الألماني وتزيا بزيه وتنكر ببعض مميزاته ولبس لباسه. وفي الصباح ذهب إلى المرآب وأخرج سيارة دولي ووضع فيها حقائبها، بينما أرسل زميلاه بعض الأصدقاء فشغلوا الكونتيسة برهة من الزمن بمختلف الأساليب حتى ضاقت بهم ذرعاً وثارت ثائرتها من تعرضهم لها وسماجتهم في تأخيرها. ولمّا صعدت إلى سيارتها كانت ثائرة الأعصاب، واستعجلت السائق في السير بدون أن تلتفت إلى أنه ليس سائقها.

كان الجاسوسان الآخران كامنين على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة. فلمّا اقتربت السيارة منهما أوقفها الطلياني فأسرعا بالصعود إليها وقبضا على المرأة. وبعد لحظة كانت دولي غارقة في سبات عميق. فقد خدرها الجاسوس الفرنسي بينما كان زميله الإنكليزي يقبض عليها ليمنعها من الحركة أو الصراخ. على أنه خفف كمية المخدر ليجنّب الحسناء صدمة وآلاماً شديدة.

ومضت السيارة في اتجاه الغرب نحو الحدود. وكان الثلاثة ينوون الوصول إلى ديفون بدون أن يمروا بالمناطق الكثيرة السكان

خوفاً من افتضاح أمرهم بالرغم من الأوراق المزورة التي كانوا يحملونها. ولم يتوقفوا إلاّ في الأماكن التي اضطرتهم الحاجة إلى شراء مؤونتهم ومؤونة السيارة منها.

وشاء سوء حظهم أن تصحو دولي بينما كانت السيارة متوقفة في قرية صغيرة، وكان الثلاثة مشغولين عنها، أحدهم بشراء الطعام، والآخر بتأمين الوقود للسيارة، والثالث السائق بفحص أطراف السيارة.

ولا بد من أن تكون الجاسوسة الألمانية أدركت ما حدث لها. وتلفتت حولها فرأت معطف أحد خاطفيها عند قدميها واصطدمت رجلها بأداة صلبة فيه. وأسرعت تخرج الشيء من جيب المعطف فإذا هو مسدس نسيه صاحبه عند مغادرته السيارة مسرعاً.

وضعت دولي المسدس تحتها وجلست عليه وهي تتنفس الصعداء وأخرجت من طيات ثوبها سلاحاً آخر احتفظت به في يدها تحت ردائها وانتظرت...

ولا شك في أنها لو صرخت ساعتئذٍ لتجمع السويسريون ولربما قبضوا على خاطفيها. ولكن ربما استطاع الثلاثة أن يقنعوا القرويين سكان تلك المنطقة الصغيرة بأنهم على صواب فيما يفعلون. ولعلها أدركت أن من يقدم على ما أقدموا عليه لا بد أن يتسلح بأوراق ومستندات وادّعاءات ولو مزورة تنقذه من كل خطر يتعرض له. ولذا أحست بحرج موقفها، ولم يخف عليها الخطر الذي قد يداهمها إذا تمردت علانية وحاولت أن تنجو بالصراخ والاستنجاد بالسويسريين. وتظاهرت بالنوم لما عاد الثلاثة وتابعت السيارة سفرها.

وطوى المسافرون المسافات مسرعين. وبدأ الظلام يخيم

عليهم. ووصلوا إلى مرتفع فأخذت السيارة تئن، ثم تقطعت أنفاس الآلة فاضطر السائق إلى وقفها. وترجل وفتح غطاء الآلة وبدأ يفحصها. واستدعى أحد رفاقه ليضيء له لأن الحلكة كانت شديدة، فخف إليه. ونزل الثالث بعد حين ليساعدهما وهو مطمئن إلى أن المخطوفة تغط في نومها.

وانتصبت دولي لما تأكدت أنها بعيدة عن كل خطر. وما هي إلا طرفة عين حتى دوّى طلقان وارتفعت صرخات أليمة، وتبع ذلك طلق ثالث وحشرجة ثم سكون... وانسلّت المرأة من السيارة وهرولت تتغلغل في الغابة وسلاحها في يدها.

كان السائق الطلياني قد أصيب بجرح بليغ في عنقه. أمّا الإنكليزي الذي كان قريباً منه فقد جرح في ساعده جرحاً خفيفاً. ولفظ الثالث أنفاسه بعد دقائق لأن الرصاصة أصابته في الصميم. وحاول الإنكليزي أن يلحق بدولي رغم جرحه، ولكن الدم كان ينزف منه بغزارة. وما لبث أن سقط متعباً.

واختفت دولي. وعبثاً حاولت دوائر التجسس المتحالفة أن تعثر على أثر لها. إلاّ أن بعض الأعوان أخبروا الدائرة السرية البريطانية في شباط (فبراير) 1918 بأنها موجودة في فرنسا. ثم شاع خبر وجودها في لندره في نيسان (أبريل). وحين انهزمت المانيا في الحرب وجد بعضهم دولي في بلجيكا في مركز القيادة ببلدة سبا، ثم اختفت.

كان الضرر الذي أصاب الإنكليز وسائر الحلفاء على يد هذه الجاسوسة عظيماً. وقد نجت من قبضة الحلفاء بالرغم من المساعي الحثيثة التي بذلت للعثور عليها. ولا يعلم أحد ما صار إليه أمرها. وليس في الدوائر السرية الحليفة ما يثبت دقائق ما اقترفته تلك المرأة

التي سمت نفسها الكونتيسة فون غايش، من كبائر الفعال. عرفتها الشرطة ودوائر مكافحة الجاسوسية جميعاً باسم «دولي» الحسناء، ولكن لم تستطع إحدى هذه الدوائر أن تحصي حركاتها أو تعرف مصيرها أو تفهم حقيقة أمرها وما أسدت للألمان من خدمات. وما تزال حياة دولي حتى اليوم لغزاً من الألغاز.

حرف الراء

1 ـ راشيل رافول.

2 ـ رايسا فروبليفساكايا.

3 ـ روث كليفر.

4 ـ روث كيلم كوهين.

5 ـ روث ويجير.

6 ـ روز أونيل غرينهو.

7 ـ روز بنرغ.

8 ـ روزا مردخاي.

9 ـ روكسيلانا.

راشيل رافول(*)
(Rachell Rafoul)
(-)

هي إحدى عميلات الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) في لبنان. وهي فتاة من اليهود المقيمين في لبنان، كلفتها الاستخبارات الإسرائيلية بمتابعة مهمة شولا كوهين التي ألقت أجهزة الأمن اللبنانية القبض عليها. واستطاعت راشيل رافول بالتعاون مع إدوار هيسي، مندوب الوكالة اليهودية في بيروت، العمل تحت ستار ملهى ليلي.

وتمكنت رافول، أثناء تنفيذها لمهامها في لبنان، تحقيق عدة عمليات لتهريب أموال اليهود المهاجرين، منها تهريب أموال إميل بتشوتو الذي أعلن إفلاسه التجاري.

وتبين أنه مدين إلى عدد من المصارف والتجار بمبلغ ثلاثة ملايين ليرة لبنانية، كما أشرفت على تهريب إبراهيم مزراحي، التاجر اليهودي في طرابلس، حيث استطاعت تجنيد زوجته ليلى مزراحي للعمل معها في الشبكة ودفعتها لاستدانة مبلغ مليوني ليرة لبنانية من

(*) المرجع: فاويشاسوف «أربعون عاماً في المخابرات السوفييتية». ترجمة جلال الماشطة. دار التقدم بموسكو. 1980. ص 264 ـ 274.

مصارف وتجار طرابلس، والهروب بها إلى اليونان، ومنها إلى إسرائيل.

وقد كشفت السلطات اللبنانية هذه الشبكة بعد فترة.

وألقي القبض على راشيل رافول في حالة تلبّس بنقل معلومات عسكرية لصالح العدو.

رايسا فروبليفسكي(*)

(Rayssa Vroblifeski)

(- 1925)

هي إحدى فتيات الجاسوسية السوفياتية، والمعروفة بـ «الزهرة الزرقاء». فمن هي هذه؟ وما الدور الذي قامت به؟

في الحقيقة، لقد فقدت رايسا فروبليفسكي أمها منذ الصغر وعاشت في مينسك مع أبيها ألكسندر وأختها الصغرى أولغا وجدّتها.

كانت حياة العائلة قبل الحرب لا تتميز بشيء بارز، ولم تكن سعيدة لأن ذكرى الأم الفقيدة ظلت عالقة في الأذهان بالطبع. بيد أن تلك كانت حياة نشيطة فوارة. وكانت العائلة تفرح لفرح الشعب كله وهو يبني مستقبله السعيد بنجاح وتفان. وتهيأت للأطفال السوفييت ظروف الحياة الممتعة النشيطة. وافتتحت أبواب القصور والمسارح أمامهم، وصار مربون حصيفون يدرسونهم في المدارس، وحظوا في كل مكان وعلى الدوام برعاية الحزب والكومسومول والدولة والأوساط الاجتماعية.

وكان الجو الأخلاقي للعائلة قد نشأ استناداً إلى مجمل نظام

(*) المرجع: نزار عمار. الاستخبارات الإسرائيلية. ص 42.
وعمر أبو النصر «إيلي كوهين». ص: 45 ـ 46.

الحياة في روسيا، وحظي هذا الجو بدعم وجهود جميع أفراد العائلة، وكانت أمور كثيرة تتوقف على الأب ألكسندر ذلك العامل المؤهل المحنك الذي يجيد بنفس القدر مهن الخراط والبراد. وعاشت البنتان في جو من الوئام والتعاضد وانعدام الأنانية. وترسخت هذه الأصول الأخلاقية في ذهنهما منذ الصغر.

قبيل الحرب كانت رايسا مراهقة تميل إلى ممارسة الباليه في حلقة الباليه بقصر الطلائع وإلى... دروس الإسعاف في حلقة الممرضات في المدرسة.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) 1940 انضمت رايسا إلى الكومسومول. وظل هذا الحادث عالقاً في فؤادها إلى الأبد كعيد وطني كبير وكشاخص على طريق الحياة، حيث أصبحت إنسانة أخرى ساهمت مساهمة مباشرة في أحداث واسعة النطاق. وقد تحققت توقعات الفتاة. ولكن بشكل قاس للغاية، إذ سرعان ما اضطرت فعلاً للمشاركة مباشرة في التاريخ الوطني البطولي العسير.

كانت في السادسة عشرة من العمر لا غير عندما اندلعت الحرب.

وفي 21 حزيران (يونيو) 1941 كانت العائلة تستعد للاحتفال بعيد ميلاد أختها أولغا التي كانت ستبلغ غداً الثالثة عشرة من العمر. وكانوا ينوون السفر إلى الضواحي، حيث الهواء الطلق عند بحيرة ستوروجيفسكويه. جهزوا ألبسة العيد وأعدوا مختلف الأطعمة للاحتفال به بمرح وحبور. وكان الكبار يتهامسون فيما بينهم بشأن الهدايا التي سيقدمونها غداً للبنت.

وفي صباح الغد أعلنت انفجارات القنابل عن بدء العدوان

الهتلري. وفي اليوم التالي كانت الحرائق تلتهم الكثير من الأماكن. وفي اليوم الثالث بدا وكأن النار التهمت مدينة مينسك كلها. في ذلك اليوم لم يعد الأب من العمل. ورغم القصف الفظيع قررت رايسا الذهاب إليه في الطرف الثاني من المدينة.

صرفت الفتاة أكثر من ساعتين في الشوارع الملتهبة وسط زئير الطائرات وهدير انفجار القنابل الذي يصم الأذان. وعندما رأى الأب رايسا ارتعب خوفاً عليها. ولم يستطع إلا أن يهمس بشفتين جفّتا من الاضطراب:

ـ يا ابنتي... لماذا؟.. هل هذه أنت حقاً؟..

عاد الأب والابنة إلى البيت في المساء. وبدت مينسك الجميلة المريحة مشوّهة بالقصف الوحشي الذي انهال به عليها الوحوش الفاشيون. وفي كل مكان كانت المباني محترقة مهدمة، وحواليها القتلى والجرحى والحاجيات المنزلية المتناثرة والحفر العميقة التي خلفتها القنابل. وساعد الأب والابنة اثنين من المحاربين الجرحى في الوصول إلى الساحة المركزية حيث نصبت المدافع المضادة للطائرات وحيث يوجد مركز الإسعافات الأولية.

وقال الأب:

ـ إنهم يزحفون بسرعة. من كان يتوقع ذلك؟

وبالفعل كان زحف القوات الهتلرية باتجاه مينسك سريعاً.

وظلت عالقة في ذاكرة رايسا صورة جنود الدراجات النارية الرماديون المتربون الذين كانوا أول من احتل المدينة شبه المدمرة. وظهرت على أثرهم الدبابات ذات الصلبان السوداء على جانبيها واندفعت في الطريق المتجه إلى المطار.

طالت أيام العبودية السوداء. ولم تعد توجد في المدينة أطعمة وألبسة وملح، ولم تعد فيها حرية. فقد خيم على كل إنسان خطر التنكيل والموت. وفي هذه الفترة العصيبة ساعد عائلة فروبليفسكي أن رب العائلة يجيد عدة مهن، كما أسلفنا، وكان يعمل من الفجر حتى المساء كي يحصل على لقمة العيش لأهله ولنفسه، وبالإضافة إلى ذلك كان يفعل شيئاً ما لم يطلع رايسا عليه بعد. فهي لم تعلم على الفور أن دارهم المرقمة 55 والواقعة على شارع تشكالوف قد تحولت إلى بيت اختفاء للمناضلين السرّيين.

وقد بدأت الأمور في شقتهم بداية صغيرة: فقد هيّأ الأب والجدّة لطيارين سوفييتيين لم يتسع الوقت لهما للإقلاع فظلا في الأرض المحتلة إمكانية تغيير ملابسهما. وكان سكان مينسك في تلك الأيام يساعدون على نطاق واسع في إخفاء جنود وضباط الجيش الأحمر ممن وقعوا في التطويق، وكانوا يتقاسمون معهم آخر ما يملكون من مؤن، ويرافقونهم إلى الشرق حيث كان خط الجبهة ليعبروه ويلتحقوا من جديد بالجيش الأحمر.

وفي الخريف أخذ الفاشيون يرسلون شباب مينسك عنوة إلى إلمانيا بغية استغلالهم في العمل هناك. وما كان الأب ليستطيع تصور وجود رايسا مستعبدة في الغربة، فأرسلها إلى أقربائه في قرية ستانكوفو. وقال لها هناك أحد الأقارب، واسمه فالنتين بيكارسكي، أن الألمان يأخذون الشباب من الأرياف أيضاً، ولذلك ينبغي العودة إلى مينسك والعمل عند المحتلين في دار الطيارين مثلاً، والقيام بتنظيف الغرف ومسح الأرضية والخ. وقال إن الألمان، كما يعلم، يقبلون الفتيات البيلوروسيات برضاء للعمل عندهم. وأوضح لها فالنتين قائلاً:

ـ حان الوقت لك أيضاً لبدء النضال السري.

ـ من أين أبدأ؟

ـ من جمع كل ما يفيد في مكافحة العدو. والأمر الرئيسي الآن هو الدعاية والتحريض بين السكان. فيجب أن نرسخ لدى المواطنين الإيمان بانتصارنا.

وكان الأب وبيكارسكي على حق عندما قررا أن من الضروري لها، قبل البدء بالكفاح السري، أن تؤمن لنفسها إمكانية البقاء في مينسك وعدم الرحيل إلى ألمانيا البغيضة. وكان ذلك يتطلب البدء بالعمل لدى المحتلين مهما كان ذلك ممقوتاً. ويجب القيام بذلك بأسرع ما يمكن. فقد حل الشتاء، أول شتاء في زمن الحرب...

وعلى مقربة من منزل فروبليفسكي كانت تعمل جماعة من أسرى الحرب السوفييت. وكانت رايسا تتردد عليهم غالباً وتقدم إليهم بعض المأكولات بموافقة الحارس الألماني أدولف. ذات مرة سألها أدولف عما إذا كانت توافق على غسل ملابس رئيسه. فوافقت على ذلك متمالكة أعصابها. وبعد ذلك اقترح عليها الحارس تشغيلها في المستودع الألماني في منطقة كوزيريف. ووافقت رايسا على ذلك أيضاً، لأنها تعرف الآن أنها تفعله من أجل الكفاح السري.

كان المستودع يحتوي على الألبسة والقرطاسية. وكان يعمل فيه بالأساس ألمان من منظمة العمل الهتلرية «تودت». وبغية كسب ثقة الفاشيين كلياً استمرت رايسا على غسل الألبسة، وكانت كميتها كبيرة أحياناً إلى درجة جعلت الجدة تساهم في غسلها. وأخذ الألمان يترددون على شقة فروبليفسكي لاستلام الألبسة بعد غسلها. وكان الجيران الذين يعرفون عائلة فروبليفسكي يتساءلون من الأب باستياء

عما جعل هذه العائلة تخدم الألمان. أفلا يستطيع هو أن يعمل من أجل إطعام عائلته؟ وصار ألكسندر يعتذر بتأدب ويدّعي بأن الجدة تريد أن تكسب رزقها بنفسها. ولا يدري أحد ما إذا كان الجيران صدقوا هذه الأقوال أم لا، ولكن الأمر الرئيسي قد تحقق. فإن بيت الاختفاء غدا مأموناً بسبب غسل الملابس وتردد الألمان. ومن الأدلة على ذلك الواقعة التالية. ذات مرة عرج رجال البوليس المحليون على منزل فروبليفسكي للتأكد مما يحدث فيه، فرأوا هناك ضابطاً وجندياً ألمانيين، فسأل الضابط في الحال من أفراد «دائرة النظام» عما جعلهم يدخلون المنزل. ارتبك رجال البوليس وانصرفوا. ومنذ تلك اللحظة تعززت أمانة بيت الاختفاء، مما أفاد المناضلين.

وبعد فترة قصيرة تسلمت رايسا من بيكارسكي المهمة الأولى وهي الحصول على بكرة شريط للآلة الكاتبة مع ورق رقيق جداً. وخيل لرايسا أن المهمة سهلة للغاية، مما أثار فيها شيئاً من الغيظ. وكانت تعتبر في المستودع عاملة غير مختصة، وكانت مثل هذه المواد في متناول يدها. نفذت التكليف ببعض الإبداع، حيث خبأت كل المواد المطلوبة ونقلتها من المستودع مع كومة الألبسة الوسخة التي أحضرها الفاشيون لأجل الغسيل. وها هو الغسيل الممل قد ساعدها هذه المرة أيضاً!

شكرها فالنتين على البكرة والورق، وبعد فترة سلم إليها مناشير مطبوعة على نفس ذلك الورق. وسألها قائلاً:

ـ هل تعرفين قيمة هذا السلاح؟ إنه ليس أسوأ من أي سلاح آخر.

وكلفها بإيصال قسم من المناشير إلى أسرى الحرب. وأدت

رايسا هذه المهمة أيضاً بشيء من الإبداع. فالحراس تعودوا على رؤية هذه الفتاة الروسية الجذابة تسلم الأسرى رغيفاً وسجائر. وكانت تحصل على السجائر لقاء غسل الألبسة. وقررت المناضلة الشابة أن تستفيد من ذلك فخبزت رغيفاً طازجاً وفي داخله قسم من المناشير، ودست القسم الآخر داخل علب السجائر. وفي لقاء جديد مع الأسرى سلمتهم ذلك كله بسلامة.

وكانت المهمة التالية التي تلقتها رايسا من بيكارسكي هي تأمين زي الضباط الألمان لثلاثة من الأسرى السوفييت العاملين في المستودع وتسليمهم الخناجر الذي صنعها والد رايسا، ونفذت الفتاة هذه المهمة أيضاً. صحيح أنها لم تعرف ماهية المهمة التي توجه هؤلاء الثلاثة لأدائها. فإن فالنتين لم يخبرها بذلك لاعتبارات خاصة بسرية العمل. وفي القريب العاجل انقطعت صلتها به كلياً. وعرفت رايسا فيما بعد أنه اضطر إلى ترك الكفاح السري والانتقال إلى الأنصار حيث قاتل في أحد الفصائل واستشهد في معركة.

وبعد ذلك عثرت رايسا فروبليفسكي على اتصال بفصيلتنا الخاصة ـ كما يقول القائد فاوبشاسوف ـ. كانت على معرفة جيدة ببوريسي كابوستيك الذي ساهم آنذاك في أعمال المجموعة السرية للنسف والاستطلاع بقيادة قسطنطين موراشكو. وتوجهت رايسا مع بوريس إلى قرية سينيتسي، ثم إلى أوزيريتشينو حيث تعرفت على قسطنطين وزوجته غالينا تسيركون مراسلة المجموعة، وهي التي اقترحت إطلاق اسم سري على رايسا هو «الزهرة الزرقاء».

وصارت الزهرة الزرقاء تتلقى جميع مهماتها من موراشكو. صارت تعمل في مستودع آخر يضم أجهزة الراديو واللاسلكي وقطع

الغيار للطائرات وكثيراً من المطبوعات التكنيكية. وكلفت الزهرة الزرقاء بتغيير محتويات شحنات الأجهزة المخصصة لإرسالها إلى الوحدات العسكرية واستبدال الصمامات الكهربائية فيها وكذلك التعليمات الفنية الخاصة بها وتشويش الوثائق المرفقة بها.

ونفذت رايسا المهمات بنجاح، وتجمعت لديها خبرة في النشاط السري، ولم يفتضح أمرها ولا مرة واحدة. وساعد عملها في المستودع على صيانة بيت الاختفاء على شارع تشكالوف. فحالما يظهر رجال البوليس أو الأس أس في شقتها تبرز لهم بطاقة العمل في المستودع الألماني فتتبدد كل شكوك الأعداء فيصرفون النظر عن تحرّي الشقة. ولو أنهم تحروها لعثروا على كثير من الأمور الهامة بالنسبة لهم والفتاكة بالنسبة لرايسا وعائلتها. فهناك متفجرات وأسلحة ومناشير. وكانت غالبها ما تحتفظ بها في الشقة بتكليف من قائد المجموعة، وبعد ذلك كانت تسلمها إلى بوريس كابوستيك وغيره ممن يعنيهم الأمر.

كان بوريس يشارك في أعمال التخريب في المطار أساساً. واجتذب بوريس إلى العمل السري ألكسندر سيربين، وصار كلاهما يمارسان النشاط معاً إلى أن عاجلتهما المنية.

خلال عام 1943 جرى عمل متوتر وخطر. وفي مطلع تشرين الأول (أكتوبر) تحقق حلم الزهرة الزرقاء القديم في الوصول إلى معسكر الفصيلة الخاصة والاطلاع على حياة الأنصار. كانت تحلم بالقتال ضمن الفصيلة والعيش في الغابات بين الوطنيين البواسل، بيد أن مصلحة القضية كانت تتطلب بقاءها وعملها في مينسك المحتلة. وعشية عيد اكتوبر تعرفت على النصيرة الباسلة «الزهرة الزرقاء» فما

هي الانطباعات التي ظلت عالقة في مخيلتي من ذلك اليوم البعيد ـ يقول فاوبشاسوف ـ.

مثلت أمامي فتاة نحيلة ذات محيا جميل خجول. وظل هذا المحيا يحتفظ بكثير من ملامح الطفولة حتى فكرت في نفسي: «يا إلهي، وهذه أيضاً واحدة من محاربات الفصيلة الباسلات اللواتي يقاتلن في وكر العدو!». وكان أول رد فعل لديّ هو انتشالها من مينسك وتشغيلها في الفصيلة في أي منصب كيلا يتعرض هذا الكيان الفتيّ الغض للمخاطرة هناك. ولكن من الذي سيحل محلها يا ترى. فهي مناضلة سرية أمكن إخفاء أمرها جيداً، والفائدة منها كبيرة للغاية. . .

وظلت عالقة في ذهن رايسا من هذا اللقاء، كما حدثتني هي فيما بعد، احتفالات عيد أكتوبر في جو كفاحي وكذلك الأغاني والأناشيد حول موقد نار الأنصار، ووصول طائرة من «الأرض الكبرى» والمحاربون والقادة الرائعون الذين تعرفت عليهم في الفصيلة وتصادقت معهم خلال مدة بقائها القصيرة بينهم.

وفي طريق العودة توجهت الزهرة الزرقاء تحمل كمية من المتفجرات لمجموعة موراشكو السرية. وكانت المتفجرات مموهة بمنتجات قروية وكأنما راحت الفتاة إلى القرية لتستبدل ألبسة بأغذية. ورافق كارل دوب الفتاة من منطقة أوزورتشينو حتى المخافر الألمانية على مقربة من مينسك. ففي هذه المرة توجست رايسا خيفة من العودة إلى المدينة. فقد لاحت عليها آثار العمل الخطير الفتاك طوال شهور. . .

وبعد عملية النسف الأخيرة في المطار لم يعد جميع المساهمين

فيها سالمين. فقد قتل بوريس كابوستيك وألكساندر سيربين أثناء محاولة الهرب. وفي العاشر من كانون الأول (ديسمبر) كانت الزهرة الزرقاء تنتظر وصول سيارة فيها المناضل السري «النورس»، ولكن اللقاء لم يتم. ففي ذلك اليوم، عندما كانت رايسا تنتظر وصول السيارة اقتحم الفاشيون الدار في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر ومعهم نينا سيربينا وأمها العجوز. وتسنى لنينا أن تخبر رايسا عن مقتل زوجها وبوريس. وعندما سمع الفاشيون الحوار انهالوا على الجميع بالرفسات واللكمات والشتائم. وأدركت الزهرة الزرقاء أنهم معتقلون. شدوا كلاباً واحداً على يد رايسا ويد نينا فقيدوهما معاً. وربطت أولغا أخت رايسا والعجوز أم نينا بالحبال. أجروا التحري فلم يعثروا على شيء، اعتقلوا أبا رايسا أيضاً.

زجوا بجميع المعتقلين في زنزانة واحدة، مما أتاح لألكساندر أن يوحي لابنتيه بكيفية الإجابة أثناء الاستجواب وكيفية الرد على المحققين. لم تكن لدى الفاشيين أدلة مباشرة، وذلك ما سهل الأمر على المناضلين الذين اعتقلوا في ذلك اليوم...

وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً استدعوهم للتحقيق. اقتادوا رايسا في البداية. فالتزمت بتكتيك الإنكار التام لعلاقاتها مع حركة المناضلين السريين والأنصار وقالت بأنها تستنكر هذا الاعتقال الجائر.

- يبدو أنك لن تعترفي بالتي هي أحسن. قال المحقق ثم أعطى إشارة إلى الجلادين الذين انهالوا على رايسا ضربا بالسياط.

في البداية لم يصدر عنها صوت، وفيما بعد أخذت تصرخ. فصاح بها المحقق:

- هل ستعترفين؟

ـ لا أعرف شيئاً، ولست مذنبة بشيء. صاحت الفتاة بأعلى صوتها.

وانتهى التحقيق بلا نتيجة. ولم يعترف باقي المعتقلين بشيء. وفي الصباح قيدوا الجميع بالكلاليب واقتادوهم في شوارع المدينة إلى دائرة الأمن حيث تكرر الاستجواب والضرب والتعذيب. وبعد ذلك أرسلوهم إلى السجن على شارع فولودايسكي واستمر التحقيق معهم طوال شهرين. وذات مرة استدعوا نينا سيربينا للاستجواب فلم تعد. ومنذ ذلك الحين ومصيرها مجهول.

وفي المرة الأخيرة استجوب رايسا هتلري لا تعرفه. ولعله من ذوي الرتب العالية. وعندما اقتادوها إلى غرفته وسط زمجرة كلب تقصي الأثر الذي يحضر التحقيق من كل بد قال المحقق الجديد للمترجم:

ـ أين عثرت عليها؟ أية نصيرة هذه. إنها طفلة صغيرة. فأجاب المترجم:

ـ إذا ضربنا هذه الطفلة كما يجب فإنها ستتكلم كالراشدين. فقال المحقق:

ـ حاول أن تنتزع منها شيئاً.

فأخذ المترجم يستجوبها بنفسه. بدأ، كما هي العادة، بالتهديد.

ـ اختاري أمراً من اثنين: إما الحياة وإما الآلام الطويلة. فأمثالك لا نجعلهم يموتون رأساً، بل ننتزع منهم الحقيقة مهما كلف الثمن.

كان قلب رايسا، كما تحدثت فيما بعد، غاصاً بالرعب. تجمد

بدنها وتحجرت قدماها. ولكنها تظاهرت وكأنما كل هذه التهديدات لا تعنيها، فهي بريئة...

اقتادوها إلى غرفة التعذيب. فما أكثر الأدوات التي تستخدم لتعذيب البشر! وهنا أيضاً كررت رايسا أنه ليس لديها ما تدلي به إلى المحقق.

ومما أثار دهشتها أنهم لم يعذبوها. فقد قام الألماني بالتحقيق بحضور المترجم. وكان الهتلري كأنما يتحدث معها بلا تكلف دون أن يطرح أسئلة مباشرة كما يجري أثناء التحقيق عادة. وتظاهرت رايسا بأنها صريحة حتى أنها حدثت الهتلري عن حياتها قبل الحرب. وراحت تقارن بين تلك الحياة وهذه، وكأنما اعتقلت لمجرد ارتياب وشكوك، حيث يعذبونها في السجن طوال شهرين لا لشيء. وكان هذا الأسلوب التكتيكي الجديد قد أضفى على خرافة رايسا قدراً كبيراً من الإقناع. فقرروا عدم تضييع الوقت معها، ولكنهم ما كانوا ينوون إطلاق سراحها. فأرسلوها إلى معسكر الاعتقال الواقع على شارع شيروكايا.

كان هذا المعسكر مكاناً رهيباً فظيعاً في مينسك المحتلة. بقيت فيه رايسا أمداً قصيراً ولكنها شاهدت أفظع الأمور. رأت كيف كانوا يدسون الضعاف والمرضى في مخانق الغاز. وبعد محاولة للهرب قتل خلالها أحد الحراس وأحد الضباط أجرى اصطفاف للجميع وأطلقت النار على مرأى منهم على واحد من كل عشرة أشخاص باعتباره رهينة.

بيد أن رايسا شهدت لحظات تبعث على السرور، مثل لقائها مع أبيها. وعلمت منه أن أختها أولغا أخرجوها من السجن قبل ذلك واقتادوها إلى ألمانيا مستعبدة.

وسرعان ما اقتادوا رايسا أيضاً إلى الغرب مع وجبة جديدة من المعتقلين. وقبل ذلك أجريت لهم ثلاث مرات «معالجة» صحية على الطريقة الفاشية، أي أنهم اقتادوهم عرايا تماماً من زنزانة الوقاية إلى الحمام ذهاباً وإياباً في صقيع شباط (فبراير) القارس...

كان الجميع يعرفون إلى أين يقادون. وما كانوا يريدون الرضوخ لذلك. وقبيل الوصول إلى بولونيا أو في أراضيها هرب عدة رجال من القطار. ولقاء ذلك ضرب الحراس بوحشية كل الذين كانوا مع الهاربين في عربة القطار. وفي عربة النساء المغلقة التي كانت فيها رايسا اندلع احتجاج عفوي على الضرب. فقد أخذت النسوة منديلاً أحمر من إحدى العجائز وعلقته عبر شباك العربة الحديدي وأنشدن بصوت واحد أغنية ثورية.

استشاط الحراس غضباً. ففتحوا بوابة العربة بصرير حاد وانهالوا على النساء بالسياط وأعقاب البنادق. في حين تعالت في عربة أخرى أنغام أغنية أخرى. فأغلق الفاشيون بوابة هذه العربة وهرعوا إلى تلك... واستمر الحال على هذا المنوال.

في البداية أرادوا تفريغ القطار في معسكر للاعتقال على مقربة من برلين. ولكنهم غيروا رأيهم فيما بعد فأضافوا إلى القطار عدداً من سجناء هذا المعسكر. وما كان بالإمكان النظر إليهم بدون ارتعاب، إنهم جثث متحركة، ووجوه مشوهة معذبة، ورؤوس حليقة وأسمال بالية.

وصل القطار إلى فرنسا. وكان الجميع جياعاً بشكل يفوق التصور. فما كان بالإمكان السير فرادى، وراحوا يسيرون ثلاثة ثلاثة لا تكاد أقدامهم تقوى على حملهم. وعندما صفوا الرجال في جانب

والنساء في جانب آخر رأت رايسا أباها من جديد. واتضح لها أنه مرتحل إلى بلاد الاستعباد في نفس القطار. كان اللقاء قصيراً، فقد فرقوهما. وفيما بعد علمت رايسا أن أباها فرّ من المعسكر الألماني ووقع في أيدي الحلفاء الذين دخلوا فرنسا آنذاك.

أرسلوا 300 امرأة من القطار إلى معسكر في قرية قروا بشمال فرنسا، حيث كانت تبقى تحصينات من الخرسانة المسلحة. وفجأة أعلنوا عن حجر صحي لمدة أسبوعين، وذلك بحجة عدوى التيفوئيد. وعلمت رايسا فيما بعد أنه لم يكن هناك أي تيفوئيد، بل أن الطبيبة الروسية ريدليفسكايا ادعت بوجود التيفوئيد وذلك لكي تخفف من آلام المعتقلين.

وبلغ مسامع رايسا بعد ذلك أن بضع نساء هربن من السقيفة المجاورة. واقترح عليها أحدهم أن تفرّ هي أيضاً إلى الأنصار. في البداية لم تشد رايسا العزم على ذلك، لأن الوقت لم يتسع لها كي تطلع على الموقف وتدرس نظام الحراسة الألماني بالتفصيل. ولكنها عرفت فيما بعد أنهم ينوون نقل المعسكر كله إلى ألمانيا للعمل في المناجم. وجعلها ذلك تستجمع قواها وتفر ليلاً بمساعدة دليل فرنسي. ولكن رايسا فقدته في الظلمة وتاهت في مكان غريب عليها . . .

ولم يكن من الصعب على الفاشيين أن يحزروا بأن هذه الفتاة الهزيلة بأسمالها الرثة إنما هي سجينة هاربة. فقبضوا عليها في الحال وبعثوها إلى معسكر آخر.

وبعد عام من ذلك عادت رايسا فروبليفسكي إلى مسقط رأسها مينسك في الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) 1945، في عيد ميلادها

العشرين. كان لقاؤها مع المدينة مفرحاً ومحزناً في آن معاً. فما الذي تبقى من مينسك الرائعة، إن العقل يحتار في ذلك... وكان التوجه نحو الدار يثير الرعب لديها. فمن يدري؟ هل ظل هنا أحد على قيد الحياة؟ ها هي في شارع تشكالوف. وها هي دارها تنتصب وحيدة بأعجوبة وسط الأنقاض والرماد... ولكن أناساً آخرين يعيشون فيها. فهل يعني ذلك إن جميع أهلها قد... بيد أن الجيران، وهم من الأقلية التي ظلت على قيد الحياة، هدأوا من روع الفتاة وأكدوا أن أهلها أحياء. واتضح أن أباها عاد في العام المنصرم، وعلى أثره عادت من المهجر القسري الألماني أختها أولغا. واجتمعت أخيراً العائلة التي اعتقل أفرادها قبل عامين. لقد نجوا من الموت بأعجوبة.

وبدأت الحياة السلمية الجديدة رغم صعوبتها. التحقت رايسا بالعمل وواصلت الدراسة في الوقت ذاته. وفي عام 1948 انتقلت من مينسك إلى تشيليابينسك واشتغلت في معمل التريكو. وصارت رئيسة فرقة عاملات، ثم مديرة ورشة، وبعد ذلك غدت مدرسة في دورة التعليم الإنتاجي، ومارست نشاطاً اجتماعياً واسعاً باعتبارها رئيسة للجنة نقابة المعمل ورئيسة لهيئة الرقابة لدى لجنة المحافظة لنقابات عمال صناعة النسيج والصناعة الخفيفة.

روث كليفر(*)
(Roth Clever)
(-)

هي إحدى عملاء المخابرات الإسرائيلية التي كانت تدير مجموعة المخابرات في مصر من أجل تهريب المهاجرين اليهود من مراقبة السلطات البريطانية، وقد أقامت هذه المجموعة وأشرفت على تنظيمها، وكانت تستخدم السفن والشاحنات والجمال أيضاً في نشاطات التهريب التي تمارسها.

وعمل إيلي كوهين مع هذه الجماعة في مصر، بصفته ساعياً في بعض الأحيان وذلك ضمن نشاطاته في حركة شبّان يهود مصر المسماة هاشيروت.

جاءت إلى مصر للاتصال بالصناعي اليهودي قطاوي باشا، وهو زعيم الطائفة اليهودية في القاهرة، وطلبت إليه تمويل الهجرة غير القانونية إلى فلسطين، فأجابها مهدداً بإثارة كلابه عليها.

هذا في الوقت الذي كان فيه يهود مصر يقفون ضد الصهيونية حيث أقدم رئيس الحاخاميين حاييم ناحوم باشا وكان كفيف البصر تقريباً، على استنكار الصهيونية وأغراضها.

(*) المرجع: الموساد جهاز المخابرات الإسرائيلية السري. ص 51.
والجاسوسية الإسرائيلية وحرب الأيام الستة. تعريب غسان النوفلي. ص 35.

روث كيلم(*) كوهين
(Roth Kylm)
(-   )

هي إحدى أشهر جواسيس الألمان التي كانت على علاقة بوزير الدعاية النازي جوزف غوبلز وأبعدها على أثر ذلك إلى اليابان لتساهم في حادثة بيرل هاربور ضد الولايات المتحدة.

هذا، وقد اجتاحت المستحدثات الجديدة جزر هاواي، كما طغت الألحان الجديدة كالسوينغ وغيرها منذ وقت طويل على الألحان المحلية، والأغنيات التي كانت تتردد على شفاه الفتيات البولينيزيات الجميلات، ولكن كل ذلك كان يتضاءل أمام الحدث الجديد المثير الذي دخل إلى حياة هونولولو. وكان ذلك الحدث الجديد موضوعاً للحديث على شفاه كل امرأة في الجزيرة ولا سيما أولئك الذين يشعرون بالبهجة والفرحة أكثر من غيرهم من نساء ضباط البحرية، والبحارة الأميركيين الذين كانوا من المقيمين في الجزيرة بعيداً عن رفاه المدينة. وأخيراً، أصبح بإمكان جزر هاواي أن تزهو بوجود مؤسسة للتجميل تضم أحدث الأجهزة فوق أرضها. وكانت روث

(*) المرجع: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». ترجمة بسام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت 1965. ص 281 ـ 293.
وصلاح نصر «الحرب الخفية...». ص 184 ـ 186.

مديرة المؤسسة تتمتع بحب الجميع من رجال ونساء نظراً لكونها أفضل من كان يزين الرأس لأفضل أزياء الشعر. لقد كانت مؤسستها تضم أحدث الأجهزة كما أنها استخدمت الإخصائيات لتزيين الشعر والخبيرات في فنون التجميل، وبذلك أصبحت هذه المؤسسة على استعداد لتنافس أحدث دور التجميل في الشارع رقم 5 في باريس. وكانت المئات من النسوة يقضين اليوم بأكمله في الاسترخاء والراحة والتمتع بالجو الساحر الذي تتميز به مؤسسة روث للتجميل. ولم يمض سوى فترة قصيرة حتى أصبح هذا المنزل الذي كان كل ما فيه على الطراز الحديث مركزاً للثرثرة، وتناقل كل أحاديث ما يطرأ على الحياة في جزر هاواي. وكانت النسوة تتناولن في أحاديثهن ذكر الرجال الذين يصلون المدينة أو الذين يغادرونها بإجازة إلى أي مركز جديد، بالإضافة لذكر البواخر عند قدومها وذهابها، وكان من الصعب على ما يبدو إيجاد موضوع آخر للحديث، لأن كل حياة الجزيرة كانت متركزة على هذه الأحداث.

افتتح معهد التجميل أبوابه في عام 1939، ولم يكن هناك أي إنسان من المقيمين فوق جزر هاواي ليفكر في الحرب أو بما يدور في العالم المتحضر، وكان من النادر أن يأتي ذكر مثل هذه الأحداث على لسان أحد. ولكن عمل الجاسوسية ليس عملاً متقطعاً. إنه عمل مستمر لمن يزاولونه سواء أكان ذلك في أيام السلم أو في سني الحرب.

ولم يكن هذا التنظيم من عمل الأميرال كناري الذي كان مختصاً بأعمال الجاسوسية، بل كان من عمل وزير الدعاية والإعلان جوزيف غوبلز الذي مات منتحراً في عام 1945.

كان قد مضى على غوبلز في عمله سنتين عندما أقبل عام 1935

وقام الوزير بتنظيم حفلة ساهرة بهذه المناسبة دعا إليها كل العاملين في وزارته. ولقد كانت حفلة رائعة شعر الجميع خلالها بالسعادة والفخر للقوة الجديدة التي أصبحت عليها ألمانيا النازية.

ولقد سمح غوبلز لنفسه خلال هذه السهرة بعقد أواصر صداقات جديدة بعد أن أتعبته مغامراته النسائية الماضية التي كانت كل منها معقدة أكثر من الأخرى.

وكان سكرتيره الخاص ليوبولد كوهين من حضور الحفلة، وكانت برفقته شقيقته الصغيرة روث التي كانت فتاة شابة على جانب من الجمال الخارق للطبيعة. وقضى غوبلز الذي كان بمقدوره أن يبدو رقيقاً للغاية اجتماعياً وقت ما يشاء، وعندما يكون ذلك ضرورياً، تلك الأمسية بكاملها برفقتها. ولقد استمتع كل من الاثنين بتلك السهرة إلى أقصى حد ممكن حتى أنهما أفرطا قليلاً بتناول المشروبات الروحية. وكانت كل فتاة من اللواتي حضرن الحفلة، وحتى المحرومات الذكاء منهن، قد أدركن مباشرة أن الاتصال بوزير الدعاية والإعلام هو حدث هام للغاية. ولا يعرف أحد كيف تطورت العلاقات بعد ذلك، كما أن انقطاع تلك العلاقات بعدئذٍ بقي سراً اختفى خلف ضباب التاريخ.

ولكن، وعلى كل حال، فإن من المعروف بأن وزير الدعاية والإعلام كان قد اتخذ ذات يوم قراراً مفاجئاً بإجبار روث على مغادرة ألمانيا، فهل كان ذلك نتيجة لتدخل زوجة غوبلز التي قتلت بأيدي زوجها بعد ذلك؟. أم كان نتيجة لمبالغة روث في علاقتها معه؟. . . وهل عملت على تهديده بإثارة فضيحة كبرى؟. وكانت الإجابة على هذه الأسئلة أمراً هاماً، ولكن ليس له علاقة مباشرة في أعماق التاريخ.

وكان على روث أن تغادر البلاد، ولكن ترى هل سيكون ذلك

إلى الأبد؟. وفي الواقع لقد كان غوبلز في تلك الفترة على غير وفاق مع منظمات استخبارات الجيش والبحرية لما كانوا يعرفونه عنه، ولذا فقد اضطر أن يدير ظهره لهما، وكان من أكثر المقربين إليه ومن أعوانه كارل هوشوفر ابن ذلك الجنرال الشهير المختص بالجغرافيا السياسية. ولقد كان الأب وابنه من الأساتذة الأصيلين لإلقاء مادة الجغرافيا السياسية في جامعة برلين، وكان يتم تعيين طلاب هذا المعهد عموماً في وزارة الخارجية للعمل بصورة رئيسية في منظمات الجاسوسية التي كان يوجهها وزير الخارجية أربو بيغتروب الذي تم إعدامه شنقاً في نورمبرغ. ويعود الفضل إلى الجنرال هوشوفر الذي انتحر عام 1946 بعقد أول خيوط الاتفاق بين ألمانيا واليابان، وكان هذا الجنرال يحترم احتراماً عميقاً الوزير غوبلز ويشعر بالامتنان لذلك الدور الذي قام به هو وتلامذة مدرسته الفكرية في سبيل تقديم العون للنجاح في مهمته. ونتيجة لذلك فقد أصبح بإمكان غوبلز أن يطلب منه مساعدته لأداء أي عمل يدخل ضمن إمكاناته، كما وكان الجنرال هوشوفر على استعداد لتنفيذ أي مطلب يطلب منه.

نعم. إن هوشوفر هو الشخص الذي يستطيع استخدام الفتاة روث كيلم كوهين والاستفادة منها، فلقد كان ذلك الجنرال العجوز، والذي سافر إلى اليابان ولديه الخبرة الواسعة منذ عام 1914 نتيجة لإلمامه بكافة الوسائل التي يمكن الاستفادة منها، والذي تمكن من المحافظة على علاقات منتظمة مع هذه البلاد، وكان زملاؤه من اليابانيين قد أعلموه حديثاً بأنهم بحاجة إلى من يتعاون معهم من البيض سواء كانوا رجالاً أو نساء. ولقد كان هذا الطلب نوعاً جديداً من التجارة باللون الأبيض، وقد أمكن تأمين الاتصال بواسطة ضباط الاتصال الذين كانوا يعملون كوسطاء بين عائلة هوشوفر الأب والابن

وبين اليابانيين، وساهمت الحكومة اليابانية في تنظيم العملية للاستفادة من المنظمات التي كان يوجهها العملاء البيض ومساعدتهم في أعمال التجسس اليابانية، رغماً عن طبي تاي رئيس الشرطة السرية والمستقلة عن الجيش الامبراطوري لليابان. ولقد كانت هذه البلاد في الواقع تحتاج لملء شواغرها في منظمات الاستعلامات، وذلك لتلبية احتياجاتها المتزايدة، ولقد قام هوشوفر بدوره بإعلام غوبلز بأنه تمكن من إيجاد عمل لا يقتصر على روث كوهن بل يشمل أخوتها وأقاربها جميعاً على شرط أن يتصرفوا بحكمة وحذر وعلى أساس إخضاعهم مسبقاً لدورة تدريبية أساسية. كان والد الفتاة بيرنارد جوليوس أوتوكوهن من مواليد برلين ويبلغ من العمر أربعين عاماً، وكانت ابنته روث تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، كان الوالد قد تطوع في بحرية الامبراطورية الألمانية عندما كان عمره ثمانية عشر عاماً، ودخل الحرب وهو برتبة مرشح، على متن طراد تم إغراقه خلال معركة بحرية في عام 1915. وثم ألقي القبض عليه حيث تم نقله إلى إنكلترا كأسير من أسرى الحرب، واستفاد من تلك الراحة الإجبارية فتعلم اللغة الإنجليزية بشكل جيد. وعندما تم توقيع الهدنة وجد بيرنارد نفسه مدنياً وبدون عمل.

وعندئذٍ دخل برتبة ملازم في خدمة بحرية جمهورية الويمر، وبعد ستة أشهر تم تدمير ذلك الأسطول الألماني فقرر كوهن معاودة دراسة الطب ليتلاءم مع الحياة الجديدة بعد أن وجد نفسه مرة أخرى في الثياب المدنية. ولقد انضم إلى عدد من المنظمات الوطنية وأصبح عضواً فيها إلى أن ظهرت المبادىء النازية فأظهر حماساً كبيراً لها وانضم إلى تنظيماتها وعمل على أن تتشبع ابنته بأفكار آدولف هتلر الشيطانية.

ولقد عجز كوهين عن الحصول على شهادة الطب بعد أن تنقل بين عدد من الجامعات. وكان لا بد له أخيراً من قبول عمل في منظمات الغستابو التي كان يقودها صديقه هينريك هيملر، ولقد تذمر كوهين بعد ذلك بحدة من العمل في الغستابو، وذلك أنه عوضاً عن أن يتسلم قيادة الشرطة في مدينة من المدن الألمانية الكبرى حسب ما قطعت له الوعود، فقد تم إبعاده إلى جزر هاواي بسبب نزوات ابنته الفاتنة.. كان أبطال الرياضة من الأميركيين يستعدون للدخول في الدورة الأولمبية مع اليابان التي كانت من زبائن الولايات المتحدة الأميركية في تجارتي البترول والحديد الخام، كما أن العالم كان قد بدأ يستعيد أنفاسه بعد فترات التوتر الشديد، أما المنظمات التي كانت تتم في الباسيفيكي فقد بدأت تؤتي ثمارها، تلك هي لوحة مشاهد العالم عندما تم نزول عائلة المانية في 15 آب عام 1939 على أرض جزر هاواي، ولم تكن هذه العائلة تحمل مظاهر السائحين العاديين؛ فلقد كان الأب عالماً وأستاذاً في الرسم ذا مظهر نظيف وأنيق، كما كان جميع أفراد العائلة يتميزون بتربيتهم الرفيعة وثقافتهم العالية. وكان يرافق برنارد يوليوس أوتو كوهن جميع أفراد عائلته ما عدا ابنه ليوبولد الذي بقي في برلين كمرافق خاص لغوبلز.

أما المرافقين لكوهين فهم زوجته فرو فريدل كوهين، وابنها هانز جوشيم الذي كان يبلغ من العمر آنئذ ستة أعوام، وابنته روث، ولم تكن روث وشقيقها ليوبولد في الواقع من أبنائه، بل أبناء زوجته من زواج سابق. وكان من الممتع حقاً مشاهدة الحياة المنزلية الموحدة لهذه العائلة. فلقد كان سبب وجودهم هنا لأن الوالد كان يريد تعلم اللغة اليابانية، كما كانت رغبة كوهين وابنته دراسة تاريخ لجزر هاواي. ولذا كانوا في حالة تنقل مستمر بين الجزر المتماثلة مع زيارة

المنازل الحجرية القديمة التي يعود تاريخ بنائها إلى أيام البعثات التبشيرية الأولى. ولم يمض عليهم وقت طويل حتى أصبحت لديهم المعرفة التامة بطبوغرافية أرض جزر هاواي كما لو كانوا يعرفون ما في جيوبهم، كما كانت روث تهيم حباً بالنزهة دائماً على طول الشاطىء، كما كان كل من في العائلة مولعاً بمزاولة الألعاب المائية. ولذا كانوا يذهبون كثيراً إلى السباحة كما كانوا يستأجرون أحياناً أحد المراكب الشراعية أو الزوارق الشراعية من أجل الذهاب في رحلة استطلاعية. أما الأم السيدة فريدل فقد كانت سيدة منزل فعلاً، من ذلك الطراز المألوف، ولكنها أصبحت بعد ذلك ذات فائدة كبرى، ذلك أنها كانت تجيد الاستماع وتدون المعلومات الدقيقة التي لها الأهمية الخاصة في المخططات العسكرية، كل ذلك مع احتفاظها بمظهرها كسيدة منزل لا يهمها من هذه الحياة سوى الاهتمام فقط بما يعود على منزلها بالرفاهية والراحة. وفيما بين عامي 1936 ـ 1941 ذهبت مرتين إلى اليابان بمهمة نقل بريد دون أن يشعر رجل المباحث السياسية، أو منظمة استخبارات البحرية الأميركية، بأي شك تجاهها من أي نوع كان.

كانت الفتاة روث ذات القوام الممشوق تعمل حسب مخطط مدروس، فقد تعلمت اللغة الإنجليزية بسرعة بالإضافة إلى أنها كانت تزاول الرقص بشكل رائع. ولذا كانت تساهم في كل حفل كبير، وكانت تلبي الدعوات المستمرة إلى النوادي المختلفة، وكانت تجر في أثرها عشرات ضباط البحرية... وكلهم أكثر أناقة من عشيقها غوبلز.

وكانت عائلة كوهين تجيب عند طرح المواضيع السياسية إجابات ثابتة لا تتغير وهي أن العائلة من غير أنصار السياسة النازية. أما روث فكانت تجيب على السؤال بطريقة أخرى: لقد كنت صغيرة جداً عندما

غادرنا ألمانيا. وقد قامت بتحرير عدد من المقالات عن البعثات الألمانية الأولى التي وصلت جزر هاواي وأقامت فيها، وقد نشرت هذه المقالات في الصحف الألمانية. وكان كل من تعرف على العائلة كوهين وكذلك الجوار يعرف بأن العائلة على جانب كبير من الثراء. وكان كوهين يتظاهر بأن له أملاكاً كبيرة في كل من ألمانيا وهولندا، كما كانوا يقطنون منزلاً جميلاً وأنيقاً ويمتلكون مجموعة كبيرة من التحف الفنية والأدوات الفضية، وكل ذلك كان بمثابة إثبات بأن العائلة تجمع الثروة الضخمة إلى جانب الثقافة العالية.

تلقت العائلة خلال السنوات الثلاث الأولى لإقامتها في الجزر مبلغاً يقارب السبعين ألف دولار عن طريق أحد مصارف روتردام الذي قام بتحويلها بواسطة إحدى المؤسسات المصرفية في هونولولو. كما أن فريدل عادت بعد سفرة من سفراتها إلى اليابان وفي جيبها مبلغ نقدي قدره ستة عشر ألف دولار. ومنذ قدوم هذه العائلة وحتى ذلك التاريخ، كانت المباحث السياسية الأميركية ومنظمات استخبارات القوى البحرية الأميركية على علم بأن العائلة الألمانية تلقت مبلغاً يقارب المئة ألف دولار، خلال تلك الفترة. ولقد كان ذلك المبلغ في الواقع مبلغاً ضخماً، ولكنه لم يكن من المستطاع العثور على أي أثر يدعو للشك أو الشبهة. وأن هذا المبلغ إذا ما أخذ بعين الاعتبار فإنه ينقص كثيراً عما يجب دفعه لأعمال الجاسوسية. فلقد كان العمل في البداية يقتصر على نقل الشائعات والتصريحات وكافة المعلومات التي يمكن التقاطها وجمعها بشكل غريب على مقربة من أفراد البحرية، سواء كانت بواخرهم تجارية أو حربية. وكانت روث تعرف كيف تتعامل مع هؤلاء الرجال. ثم تغير عمل الجاسوسية من حيث مستواه فانتقل من صف الضباط إلى الضباط. وكانت روث دائماً الفتاة الذكية

والجميلة والمغرية تسير في طريقها، وعمها يشجعها لمقابلة الضباط وهي تشعر بأنه كلما زادت فرص تقابلها معهم، كلما ازدادت عبثاً ولهواً. وكانت الحرب تقترب من بدايتها وبذلك كانت طلبات الألمان من عميلهم الأمين تزداد باضطراد.

كانت العائلة كوهين تعمل في خدمة بلدين معاً. فعلى الرغم من أن الجنرال هوشوفر قد وضعها في خدمة اليابانيين إلا أن السلطات النازية اكتشفت بسرعة أهمية وقيمة المركز الذي يشغلونه. ولذا كان لا بد من إرسال نسخة ثانية عن كافة التقارير إلى ألمانيا. ونتيجة لذلك، فلقد أدركت العائلة كوهين بأنه من المعقول جداً طلب زيادة المدفوعات زيادة محسوسة، ذلك أن شهية الصبية روث قد تفتحت على مباهج الحياة وازدادت حاجتها للبذخ بشكل محسوس، وكذلك كان الأمر بالنسبة لكوهين.

الانتقال إلى بيرل هاربور:

وفي مطلع عام 1939 قرر كوهين بأنه في حاجة ماسة إلى مكان هادىء ليتابع فيه دراساته للغة اليابانية، ولذا كانت العائلة جميعاً مضطرة لمغادرة هونولولو للإقامة في بيرل هاربور، ذلك أن المخطط الذي وضعته المنظمات السرية اليابانية والذي تم بموجبه إرسال روث وعائلتها إلى هذه الجزر قد بدأ بسرعة يتبلور على شكله الصحيح. وأصبحت بعد ذلك لروث شهرة معروفة في أوساط الجنود الشبان وزوجات ضباط البحرية ـ ولقد كانت هي ذاتها ـ في أناقتها المفرطة، وجمالها الأخاذ، بالإضافة إلى ما عرف عنها من موهبة خاصة بما يتعلق بمهارتها في فن التجميل. ولذا فعندما أعلنت عن افتتاح مؤسسة التجميل في عام 1939 تم استقبال هذا النبأ بحماسة، وتم بذلك

إمكان تأمين الزبائن مباشرة من بين أوساط أصدقائها جميعاً. وعلى الرغم من إمكانياتها الجيدة وفنها في هذا العمل فإنها لم تكن تتوقع نجاحاً باهراً على مثل هذه الصورة.

كما أن فريدل ابتدأت هي بدورها بقضاء معظم وقتها في المؤسسة الجديدة، وكانت كل من المرأتين تحمل إلى كوهين في آخر النهار كل ما أمكن التقاطه من الأنباء التي يتم تسليمها إلى كل من القنصلية الألمانية واليابانية التي تعمل على نقل تلك المعلومات إلى المنظمات المختصة. ثم... وفي ذات يوم... طلب قنصل اليابان السابق في هونولولو أوتوجيرو أوكيدا، والذي كان قصير القامة مفرط الذكاء، مقابلة كل من روث ووالدها والاجتماع بهما في مكان سري حيث أعلمهما بأنه آن أوان اللحظة الملائمة لجمع المعلومات الهامة فعلاً المتعلقة بالتحصينات البحرية الأميركية في المحيط الباسيفيكي، بالإضافة إلى حركة البواخر وأوضاعها ومواصفاتها وأرقامها الحقيقية. كما هنأهما على نجاحهما في الأعمال التي أسندت إليهما حتى ذلك التاريخ، معلماً إياهما بأن المهمة الجديدة هي ذات طابع آخر، كما أن اليابان على استعداد للدفع بسخاء ثمناً لهذه المعلومات التي ستمكن من توجيه ضربة قاضية للبحرية الأميركية.

الخطوبة بين روث وأحد ضباط البحرية الأميركية:

طلبت روث مبلغ أربعين ألف دولار، ولكن والدها قبل مبلغاً أولياً قدره أربعة عشر ألف دولار بسرور على شرط دفع بقية المبلغ عند النجاح في أداء المهمة. ولقد ضاق صدر الأب كوهين بهذه المهمة وهو يبحث عن المصدر الذي سيتمكن بواسطته من الحصول على هذه المعلومات. ولكن روث تمكنت من إيجاد حل لهذه

المشكلة وهي تعلن بفرح خطوبتها من أحد ضباط البحرية الأميركية، وكان ذلك الضابط يحمل أرفع رتبة من بين الضباط المقيمين في بيرل هاربور. وأصبحت بذلك عضواً في وحدات الخدمة، بحيث لم يعد لعمها من مهمة سوى العمل من أجلها. وقد أثبت في الواقع بأنه بحاثة رائع، وبذلك كان يتم العمل بين الاثنين كفريق متكامل متماسك.

بعد ذلك عملت روث على تسليم عمها أمراً يتمكن بواسطته من التجول والقيام بنزهة يومية على طوال شاطىء بيرل هاربور المنيع التحصين. ثم أعطت روث إلى خطيبها أمرها قائلة: خذ هانز جوشيم معك إلى العمل. وارتدى الصغير هانز جوشيم ملابس البحرية الزرقاء وكان عمره الذي لا يتجاوز العشر سنين ذا عون كبير له في ذهابه في هذه المهمة بعد أن لقنه أبوه بالتفصيل كل ما كان عليه أن يركز انتباهه إليه. ولقد كان رجال البحرية الأميركية يوجهون الدعوة إلى الصبي الصغير الذي كان مولعاً بكل ما يتعلق بالبحرية لزيارة الزوارق الحربية، وذلك كي يشرحوا له أسرار هذه اللعبة العملاقة. وكان لا يحق لكوهين كأجنبي الصعود على متن هذه الزوارق الحربية مطلقاً، كما كان لديه من الدهاء ما يكفيه ليتجنب بذل أية محاولة لمخالفة هذه القواعد، فترك إذن لابنه أن يذهب وحيداً مع البحارة. وقابلت روث في ذلك المساء أيضاً ضباط المركب ذاته، وفي اليوم التالي قامت بوضع تقريرها باسم العائلة جميعاً، وتم نقل هذا التقرير مباشرة إلى كل من طوكيو وبرلين. وتشجعت روث على أثر هذا النجاح، وكانت أكثر من عمها اتقاناً لعملها وإبداعاً فيه، ولذا فليس من المستغرب أن تطلب من عمها إعلام أوكيدا بأنها تمكنت من وضع جهاز ضوئي لإعطاء الإشارات ونقل المعلومات عن نماذج وعدد الزوارق البحرية

الأميركية الراسية في بيرل هاربور، وذلك بالإضافة لأوضاع الأسطول الدقيقة، وحركة المراكب عموماً.

وقام القنصل بدوره فطلب جعل هذه الرموز أكثر بساطة، ولكنه أقر بأن النموذج المقترح يصلح تماماً لإقامة اتصال مع الأسطول البحري لليابان.

واحتجزت العائلة كوهين منزلاً آخر، وكان هذا المنزل صغيراً جداً يقع في كامالا غير بعيد كثيراً عن بيرل هاربور. وابتدأت روث تقضي معظم وقتها في هذا الجناح الصيفي، واشترت ذات يوم زوجاً من النظارات المزدوجة ذوي القدرة العالية على تقريب المسافات، وكان يمكن اعتبار هذا الذي تقدم عليه فتاة شابة أمراً غير طبيعي.

تاواسي موريميرا:

وكان يتم إرسال الشارات الضوئية من خلال كوة في سقيفة منزل كالاما الواقع على ارتفاع أواهي. ولقد قامت كل من روث وعمها والقنصل الياباني أوكيدا والسكرتير الرابع في القنصلية اليابانية تاواسي موريميرا بوضع لائحة عاجلة جداً للرموز والمصطلحات. ولقد جربت كل من الفتاة وأبيها ذلك الجهاز لأول مرة في 2 كانون الأول (ديسمبر) عام 1941، وتم عمل الجهاز بشكل جيد. ولقد استقبل أوكيدا في ذات اليوم لائحة تتضمن عدد ونماذج وأوضاع الزوارق الأميركية بالضبط التي كانت تتجول في مياه جزر هاواي. وكانت روث قد تغيبت عن المنزل في الليلة السابقة ليوم إرسال هذا التقرير. وقد اعترف خطيبها فيما بعد بأنه قد قضى معها تلك الليلة بكاملها. وفي صباح اليوم التالي قام القنصل العام لليابان ناجواكيتا بإرسال رسالة قصيرة على موجات الأثير إلى مكتب الاستخبارات للبحرية

اليابانية، وكانت هذه الرسالة تحتوي على كافة معلومات روث الدقيقة.

أصبح الآن كل شيء جاهزاً من أجل ذلك اليوم المشؤوم الذي تم فيه الهجوم المروع على بيرل هاربور. وكانت روث ووالدها على علم مسبق بتاريخ تلك الإغارة وموعد ساعة تنفيذها بدقة.

كانت المباحثات الدائرة باستمرار بين كل من واشنطن واليابان لا تزال مستمرة في مجراها الطبيعي عندما قام اليابانيون بهجومهم على الأسطول الأميركي في يوم 7 كانون الأول (ديسمبر) لعام 1941. وقامت روث بفتح الكوة، وعمل والدها على إرسال الشارات الضوئية المتفق عليها ليشير إلى اليابانيين عن الأهداف الواجب ضربها بالقنابل وعن المواضع الواجب تجنبها. وبذلك قام بتوجيههم إلى أكثر الأهداف الاستراتيجية أهمية. وكان كوهين يعمل على تسليط النور على الأهداف بينما كانت تقوم ابنته بالإشارة إلى هذه الأهداف. وبذا، ومن هذه الكوة... تم توجيه الهجوم على بيرل هاربور في قلب الظلام الدامس. وقامت المقاتلات اليابانية ببذر الدمار في قلب الأسطول الأميركي. كما تم تدمير ما يعادل ثلث منشآت ومباني بيرل هاربور إذ أصابتها تخريبات فادحة. ولقد تم كل ذلك حسب المخطط الذي تم وضعه من قبل الثلاثي كيتا وأوكيدا وكوهين، والذي نتج عنه مقتل ما يقارب الأربعة آلاف رجل.

يندر وجود الجرائم المستكملة الأركان ـ وهذه قاعدة معروفة ـ ولكن هذه القاعدة لا تخلو من بعض الاستثناءات. فلقد تم إعداد المخطط بشكل متقن، كما أن القنصل الياباني كان قد أعد عدته لكي تأتي غواصة يابانية فتعمل على أخذه مع عائلة كوهين ونقلهم جميعاً إلى طوكيو.

وعملت عائلة كوهين بدورها على إعداد عدتها بهدف مغادرة الجزر بشكل مفاجىء دون أن تصطحب معها شيئاً من المتاع عدا رزم من الدولارات التي كان كل من أفراد العائلة يحتفظ بجزء منها على أمل اقتسام المبلغ المتبقي لهم وهو ستة وعشرين ألف دولار عند وصولهم إلى اليابان.

كان ضباط منظمات الاستخبارات الأميركية قد لاحظوا في وسط الضباب والدخان والحريق والفوضى انبعاث الشارات الضوئية الصادرة عن تلك الكوة من ذلك المنزل الذي تمتلكه عائلة كوهين، ولذا عملوا على اعتقالهم قبل وصول الغواصة اليابانية. واحتجت كل من روث وفريدل كما أنكر كوهين بشكل قاطع كل الاتهامات التي وجهت إليه. ولكن كل الأدلة كانت تتراكم ضدهم إذ تم اكتشاف الإرسال الضوئي أولاً ثم تلا ذلك اكتشاف ما هو أكثر من ذلك، إذ أمكن العثور على كمية كبيرة من النقود في هذا المنزل، بالإضافة إلى بطاقات تخص أحد المصارف اليابانية. وعندما وصل رجال الشرطة كانت كل من النساء تحاول إخفاء الكنز في جسدها، كما أمكن العثور على منظار مزدوج بالإضافة إلى نسخ عن التقارير التي كان يتم إرسالها باللغة الألمانية. وأخيراً اعترف كوهين بكل شيء..

ولقد بذل كوهين قصارى جهده لحماية كل من زوجته وابنتها روث إذ أدلى بتصريحاته مؤكداً أنه هو المسؤول الوحيد عن كافة الأعمال... ولكن ذلك لم يفده في شيء... كما صرحت روث بأنها هي التي كانت تقوم بتوجيه كل الأعمال وأن الجميع حتى والدها كانوا يطيعون أوامرها، كما صرحت فريدل بدورها بأنها هي التي عملت على شراء المنظار المزدوج، وأنها هي التي كانت على رأس الزمرة.

وصدر الحكم على كوهين بالإعدام رمياً بالرصاص حتى الموت، وكان النازيون عندما يقعون في أيدي خصومهم ـ ويرمى بهم في السجون ـ يتخلون عن تفوقهم ونظراتهم بأنهم يتميزون على غيرهم من الرجال.

ذلك أن كوهين وقد رأى أن محاكمات روث على وشك البدء بها ـ صمم على حزم أمره كي يبذل قصارى جهده في سبيل إنقاذها. فتقدم بعرض يضع فيه كل خدماته تحت تصرف العم سام. ولكن الأميركيين أجابوه بأنهم لا يرغبون في استخدام النازيين ضمن صفوفهم، وتم توقيع الحكم عليه بالإعدام. ترى هل سينفذ حكم الإعدام أيضاً بـ روث؟... لقد خيل إلى كوهين أن الجنون سيصيبه وهو قابع في وحدته ضمن زنزانته منفرداً، أما روث فقد كانت تنتظر بصبر وهدوء وعزم صلب، ألم تتمكن دائماً وفي كل ما جرى لها من إيجاد الوسيلة التي تخرج فيها من الأوضاع المتردية؟...

وقرر كوهين أخيراً طلب الرحمة والرأفة به، واعداً بكشف النقاب أمام سلطات الاستخبارات للبحرية الأميركية عن كل ما يعرفه عن أعمال التجسس الألمانية واليابانية في المحيط الباسيفيكي، وأنه هو رئيس الجواسيس، وهو الذي قام بتنظيم الشبكة، وأن روث بريئة كما أن زوجته امرأة مغلوبة على أمرها. ولكن الضباط الأميركيين لم يقطعوا له أي وعد وهم يطلبون منه الاعتراف بكل شيء. وهذا ما قام بفعله، ولقد بقيت كل تصريحاته سراً من الأسرار المغلقة.

وكما هي الحالة في عدد من الجرائم، فلقد استفاد كوهين من بعض الظروف المخففة، فتم إنزال العقوبة بتاريخ 26 تشرين الأول (أكتوبر) عام 1942، من الإعدام رمياً بالرصاص حتى الموت إلى

خمسين سنة يقضيها في الأشغال الشاقة في الكاتراز، أما روث وفريدل فقد تم اعتقالهما لفترة، ثم أطلق سراحهما لينعما الآن بالحرية في ألمانيا. أما ليوبولد كوهين الذي بقي على مقربة من غوبلز فلقد شارك عائلته بمصابها ولكن بطريقة أخرى... إذ قضى أجله في روسيا.. ولقد حاولت فريدل الانتحار ولكنها أعيقت عن تنفيذ محاولتها، كما كانت روث متغيبة عن حضور ذلك المزاد الذي تم فيه بيع مؤسسة التجميل التي كانت تمتلكها.

وهناك أيضاً ابنة أخرى لفريدل تعيش الآن تحت اسم مكتسب في لوس أنجيلوس، وهي التي روت جزءاً من تاريخ هذه القصة. ـ كما يقول كيرت سنجر ـ.

روث ويجير(*)

(Roth Wiger)

(1911 -   )

هي جاسوسة يهودية عملت لمصلحة المخابرات الألمانية ضد البريطانيين والفرنسيين والأميركيين.

كانت روث ويجير من ربات الحسن والبهاء لا تقع على جمالها الخلاب عين رجل حتى يغدو أسير حبها.

وكانت روث ابنة خياط من «روسيلدووف». قدمت برلين في العام 1929 وهي في الثامنة عشرة من عمرها لتمتهن التمثيل على المسرح والشاشة، وأخذت تغشى المجتمعات النازية، فاسترعت بجمالها انتباه [الوزير النازي جوزف] غوبلز واهتمامه، فضمها إلى الفرق الفنية المعدة للدعاية، فأرسلت بمهمات متعددة إلى سويسرا وإيطاليا في العام 1935 وإلى هولندا في العام 1936 وإلى فرنسا في العام 1937.

وفي ذات مساء كان الأميرال كاناري يتحدث إلى روث ويجير بعد حفلة ساهرة أحياها غورينغ في بيته، فشاقه ما لمس فيها من جمال

(*) المرجع: موريس برانس «الجاسوسات الفاتنات». ترجمة جهاد قلعجي. دار الكاتب العربي. بيروت. الطبعة الأولى 1992. ص 9 - 13.

وأناقة ولباقة وثقافة فقرر أن يهذبها ويدربها ويستخدمها في مصلحته. . .

وفي تحقيق الدوائر السرية الألمانية عن أصل روث ويجير اتضح أنها تمتّ إلى أصل يهودي، بيد أن هذا لم يقف عنده الأميرال كاناري حائلاً دون استخدامها في الجاسوسية الألمانية فألحقت بالقيادة العليا في الجيش الألماني، وإذ كانت تتقن اللغة الفرنسية فقد اختيرت لمصلحة «الفرنك ريخ» وسافرت في العام 1939 إلى فرنسا كلاجئة إسرائيلية دون أن تحمل أية ورقة تدل على هويتها. . .

ونزلت بين جماعات اللاجئين الإسرائيليين. . فأمن هؤلاء أسبات العيش لروث ويجير. . . ولو كان البوليس الفرنسي أكثر يقظة في ذلك الزمان في مراقبة الأجانب لعلم أن روث ويجير التي تتقاضى 1400 فرنك في الشهر كانت تنفق أكثر من خمسة آلاف فرنك في كل شهر على المأكل والمشرب وركوب السيارات، ولعلم أنها ترتاد باستمرار مطاعم «بولفار سان جرمان» التي يؤثرها الضباط الفرنسيون على غيرها، كما كانت تتردّد إلى بيت شهير قائم وراء قصر البوربون يغشاه الوزراء والنواب لتناول طعامهم. .

وعند إعلان الحرب سلمت روث ويجير نفسها إلى السلطات الفرنسية بوصفها لاجئة أجنبية فاعتقلتها، ثم لم تلبث حتى جاء الألمان فأنقذوها!. . ولكن سرعان ما توارت عن الأنظار لتظهر بعد حين في الولايات المتحدة، ثم لتختفي من جديد. .

وفي العام 1941 أنذرت واشنطن «الانتليجنس سرفيس» بخطر هذه المرأة، فأخذت تبحث عنها طوال سنة كاملة. . وفي العام 1942 اكتشفت مصادفة في موناكو، وكانت لا تزال جاسوسة للأميرال كاناري تقبض ثمن كل «رأس» تشي به إلى القوات المحتلة خمسة عشر ألف فرنك. .

وكانت مهمتها الرئيسية حينذاك، مراقبة قيادات الطليان العليا في فرنسا وما يجري من اتصالات بين الفرنسيين وكبار الضباط الإيطاليين، وكانت تحاول، أيضاً، الحصول على أكثر ما يمكن من أخبار الجواسيس الأنكلوسكسونيين والغوليين الذين يعملون في «الكوت دازور».

وكانت روث ويجير تخدم المصالح الألمانية بغيرة وحماسة، فعرفت عن كثب بعض معاوني مندوب «الأنتليجنس سرفيس» في «كان» و «نيس» ودفعت بلباقة ومهارة، الإيطاليين، لمشاكسة الفرنسيين، وأثارت بعضهم على بعض، وكشفت عن منظمات سرية للمقاومة فهلكت بسببها ضحايا كثيرة، وكانت كل أسبوع، ترفع إلى «الغستابو» جدولاً حافلاً بأسماء ضحاياها لتزيد في أرباحها ويتيسر لها الإنفاق عن سعة على كل ما تشتهيه نفسها.

وحين تحققت الدوائر السرية الفرنسية من أعمال هذه الجاسوسة بعثت بتقرير مسهب عن أعمالها إلى لندن فجاءها الأمر بالقضاء عليها بأي وسيلة كانت..

وعهدت الدوائر السرية الفرنسية إلى فتى جريء من فتيانها لمطاردة الجاسوسة روث ويجير ومراقبتها والقضاء عليها.

وكانت روث في تلك الحقبة تقيم بـ «كان»، وقد تخلت عن صيد الرؤوس لتعشق ضابطاً إيطالياً فتلازمه كظله وتصحبه خلال تنقله بين «المارتينز» و «الكارلتون» و «الغران أوتيل».

ولاحق «الفتى الجريء» روث ويجير خمسة أيام متواليات ملاحقة القط للفأرة، بيد أن الفرصة المؤاتية لم تكن تسنح له للفتك بها، وكان رؤساؤه يطالبونه، كل يوم، بتنفيذ الأمر الذي عهدوا به إليه، وكانوا يخشون أن تصرعه مفاتنها فيتراخى أمامها ويتراجع عن

قتلها!.. إلى أن كمن لها ذات مساء في زقاق ضيق بين طريقي «انتيب» و «مونفلوري» وما كاد الليل يتقدم حتى كانت روث ويجير تمر على تلك الطريق وهي تنشد بصوت خافت أغنية الحب السعيد.. وإذا بطلقين ناريين يخترقان سكون ذلك الليل، ثم يعود الصمت فيخيم على ذلك المكان. وقد شاهد «الفتى الجريء» جسماً يهوي على الحضيض، ثم يفر هارباً لا خوفاً ولكن خجلاً من قتله امرأة!..

وفي ذلك المساء نفسه كان الراديو السري يحمل إلى لندن خبر مقتل الجاسوسة، وكان على رؤساء «الفتى الجريء» أن يصدقوه في ما رواه عن مصرعها بالرغم من أن دائرة البوليس لم تشر إلى وقوع حادثة قتل في تلك الليلة، وأن الألمان المحتلين لم تبد منهم بوادر الغضب والانتقام وقد توارت عن أنظارهم روث ويجير!..

ولم يكن ليخطر في بال أحد أن «الفتى الجريء» ذلك الصياد الماهر الذي لا يخطىء الهدف ولا تفوته الطريدة، قد أخطأ هدفه وفاتته طريدته للتأثر الذي ملك عليه صوابه، ولم يتقدم من طريدته ليتحقق من موتها بل اكتفى بأن رآها تسقط على الأرض فظن أنها ماتت.

والواقع أن روث ويجير ما كادت تسمع صوت الرصاص حتى انطرحت أرضاً لا تبدي ولا تعيد، دون أن تصاب بأذى، وظلت على هذه الحال حتى توارى «الفتى الجريء» فعادت تحمل نفسها إلى غرفتها وهي تفكر فيمن عساه يكون هذا «القاتل».. إنه ليس لصاً وإلا ما فاته الاستيلاء على حليّها وعلى ما في حقيبتها من أوراق نقدية وهي في مثل تلك الساعة من الليل!.. فهل يكون، إذن، أحد الفرنسيين وقد علم أنها تعمل لحساب الألمان ضد أبناء قومه؟.. أو أنه إيطالي أدرك أنها إحدى عميلات الأميرال كاناري للتجسس على أبناء بلاده؟... أو أنه «الغستابو» نفسه قد أخذ عليها إهمالها

لمهماتها وتعلقها بذلك الضابط الشاب!..

وبعد أن فكرت ملياً ولم تدرك مصدر الخطر الذي يهددها عزمت على اجتناب جميع الناس. وبعد أن قدرت ما لديها من الجواهر الثمينة والثياب الفاخرة، ومن الذهب والأوراق النقدية التي تتجاوز المئتي ألف فرنك، رأت أن تعتزل العمل وأن تهجر فرنسا يساعدها على ذلك جواز سفر صحيح. وفي تلك الليلة استقلت بالثمن الفاحش، سيارة نقلتها إلى مرسيليا، ومن مرسيليا إلى طولون، حيث لم تمكث إلا ساعات قلائل سافرت بعدها إلى إسبانيا!.

وفي كانون الثاني (يناير) من العام 1946 كان «الفتى الجريء» في ريو دو جانيرو عاصمة البرازيل، يرافق إحدى البعثات التجارية فإذا هو وجهاً لوجه أمام روث ويجير فاعتراه ذهول عجيب ولم يشأ أن يصدق عينيه لأول وهلة، وما أن عاد إليه روعه حتى دنا منها سائلاً:

- يبدو لي، يا سيدتي، أنني قد عرفتك في مدينة «كان» في زمان الحرب، ألست أنت السيدة روث ويجير؟!

فأجابته السيدة:

- كم أن هذا العالم صغير!.. أجل، لقد قضيت في «كان» زماناً طويلاً، وكنت إذ ذاك، الآنسة روث ويجير، أما اليوم فأنا السيدة روث د.....

- إنني أهنئكِ يا سيدتي، وأقدم لك كل احترام!

وكانت جاسوسة الأميرال كاناري الحسناء التي استقرت في أميركا الجنوبية بعد أن نجت من الموت، قد غدت شخصية كبيرة من الشخصيات التجارية في البرازيل!

روز أونيل غرينهو(*)
(Rose Onel Greenho)
(-   )

هي شخصية أرستقراطية غير عادية من الجنوب الأميركي. كانت تجمع المعلومات ذات الأهمية القصوى من رجال السياسة والديبلوماسيين والقادة العسكريين الذين كانوا يؤمّون صالونها العصري في واشنطن. وقد جرى اعتقالها في الثالث والعشرين من آب (أغسطس) من العام 1861 أثناء الحرب الأهلية الأميركية بين الشمال والجنوب، لكنها لم تفتأ، بعد أن سمح لها باستقبال خطّابها، في إرسال المعلومات من سجنها إلى رؤساء الولايات الجنوبية. وقد استحقت من خلال تضحياتها تقدير رؤسائها وثنائهم.

(*) المرجع: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية...» ترجمة مروان بطش. دار الفاضل. دمشق 1998. ص 220.

روز بنرغ(*)
(Rose Benerg)
(1953 -   )

هي زوجة أحد الشيوعيين الأميركيين الذين تمكّنت المخابرات السوفياتية من تجنيدها لمصلحتها. وتمكّن بنرغ وزوجته بحكم عمله في مؤسسة الطاقة الذرية الأميركية من الحصول على صور تصاميم القنبلة الذرية، ونقلها بالتعاون مع زوجته إلى موسكو.

وقد كشفت المخابرات الأميركية ذلك واعتقلتهما وقدمتهما مع الدليل للمحاكمة، فحكم عليهما بالإعدام بالكرسي الكهربائي في سجن (سينغ سينغ) بتاريخ 19 حزيران (يونيو) 1953 أبان حكم إيزنهاور. ويظهر من حيثيات الحكم أن القاضي أصدره بلهجة المخابرات، لا بلهجة إصدار الأحكام القضائية المعروفة نظراً «لجريمتهما التي بدون أي شك غيّرت التاريخ» حسب قول القاضي.

(*) المرجع: سعيد الجزائري. المخابرات والعالم. ص 160 - 161.

روزا مردخاي(*)

(Rosa Mardakhay)

(-   )

جاسوسة يهودية كانت تقيم في بيروت في الوقت الذي كانت فيه سارة أرونسون تعمل في فلسطين أيام الدولة العثمانية.

وفي هذا الوقت الذي انصرف فيه القائد جواد رفعت لدرس هذه القضية بصورة جدية، وقعت حادثة كان من الضروري أن ينتبه إليها المولجون بدائرة الاستخبارات العثمانية وجواد رفعت نفسه، لأنهم لو كانوا راقبوا أدوار هذه الحادثة مراقبة جدية لتمكنوا من اكتشاف أسرار الجاسوسية فيها!..

فقد كان في بيروت فتاة يهودية تدعى روزا مردخاي تقطن مع والدتها في منزل سعيد الشامي في محلة الخندق الغميق، وكانت هذه الفتاة وهي دون العشرين من عمرها مجهولة الأصل وكل ما عرف عنها أنها جاءت من أزمير إلى بيروت في بدء الحرب العالمية، والترك الذين كانوا يجهلون طرق مراقبة الجواسيس لم يحسنوا مراقبتها ومعرفة حقيقة هويتها وهل جاءت حقيقة من أزمير أم لا؟!

(*) المرجع: علي ملكي «الجاسوسية الصهيونية في البلاد العربية»، منشورات صوت الشوف. د. ت. ص 33 ـ 42.

وإن تكن جاءت من أزمير فماذا كان مركزها هناك؟ ولماذا غادرت أزمير؟!. ومن أين جاءت بالمال حتى تمكنت في سني الحرب العصيبة من أن تعيش حياة ثريّة مريحة؟!

ومن أين سحبت الأموال التي وجدت في منزلها؟!

ولماذا كانت تحصر جهدها في معاشرة ضباط أركان الحرب الألمان؟!

ويقول الأتراك أو إدارة استخبارات الشعبة الأولى في بيروت، في التقرير الذي رفعته إلى القيادة العامة في سنة 1917 بعد اكتشاف أمر هذه الجاسوسة، أنها كانت تظن أن الفتاة جاسوسة ألمانية لأنها لم تكن تتردد إلا على الألمان!!

وهي حجة واهية كان من الواجب درسها بغير هذه الصورة خصوصاً وقد كان في الإمكان معرفة الحقيقة من الدائرة الألمانية ذات الشأن!.

إلا أن الأتراك أهملوا هذا الأمر، وقد اكتشف الألمان أنفسهم أمر الفتاة، إذ اشتبهوا بها على أثر فقد بعض المستندات العسكرية!.

فقد أوفد الضابط الماجور الكونت ويلهلم فون برخولد بمهمة من القدس إلى استنبول لمخابرة أنور باشا بضرورة جلاء الجيش عن القدس والانسحاب إلى خط يمتد من الناصرة إلى الساحل المقابل لإيجاد خط مناسب، ولم تكن القدس قد سقطت في ذلك الوقت من تموز (يوليو) سنة 1917 بين أيدي الإنكليز الذين احتلوها في كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه!!

وقد اختار هذا الضابط طريق عكا بيروت للسفر إلى استنبول لأنها أقرب من السفر بالسكة الحجازية من حيفا إلى دمشق، وعلى

هذا غادر القدس وجاء بيروت فوصلها في اليوم الثالث!.

وبيروت التي كانت جحيماً لسكانها الذين ضحوا في الحرب المذكورة بأولادهم ونسائهم وأموالهم، كانت مصدر سعادة ورفاه للضباط وموظفي الحكومة من أتراك وألمان!.

❁ ❁ ❁

وفي اليوم التالي لوصول الكونت ويلهلهم فون برخولد الضابط الألماني إلى بيروت، ذهب مع نفر من أصحابه إلى دار روزا مردخاي في محلة الخندق الغميق، وتناولوا ما طاب لهم من الخمرة، وأمضوا فيها سهرة راقصة انصرفوا في نهايتها إلى رقادهم! ولما أفاق الكونت صباحاً تفقد حوائجه فلم يجد المحفظة ولا الرسالة التي كان يحملها من المشير فون فالكنهاين باشا إلى أنور باشا، فطار صوابه، وقلب الغرفة رأساً على عقب دون أن يجد لها أثراً!

• أين ذهبت المحفظة؟

ولا شك في أن روزا هي التي استولت على هذه المحفظة وأخذت صورها الفوتوغرافية، ولما تم لها ما أرادت اغتنمت الفرصة وألقت بالمحفظة في الشارع بعد أن وضعت ضمنها بضع ليرات تركية حتى إذا شاهدها أحد الجياع البائسين احتفظ بها!.

ولما عاد ويلهلم لتفقد محفظته أنكرت روزا أن تكون المحفظة عندها، وطلبت إليه أن يطلع الشرطة على الأمر لعل أحداً ممن كانوا حول المنزل وجدها فاستولى عليها!..

فراقت هذه الفكرة للضابط الألماني، فقصد إلى إدارة الشرطة واطلع رئيس البوليس العدلي على الأمر، وتولى المفوض السيد عارف الياسرجي التحقيق، فجمع كل الذين كانوا هناك وفي جملتهم أحمد

الصاوي، وهو رجل بائس من أهالي بيروت وكان نصيبه المحفظة، فأنكر بادىء الأمر إلا أنه تحت ضربات العصي (وكان المتهمون يضربون في ذلك الوقت وكان في كل مخفر فلقة يحق للمفوض استعمالها عند اللزوم) اعترف بأنه وجد المحفظة واستأثر بالخمس ليرات التركية التي وجدها لإطعام أولاده البائسين، وأعاد المحفظة!.

فاستغرب الضابط الألماني جواب الرجل لأن المحفظة كانت خالية من المال، ولما تفقدها لاحظ أن الكتاب السري قد فتح فعرض هذا الأمر على السيد الياسرجي، فأحال هذا الأخير الرجل مع الضابط الألماني إلى رئيس البوليس العدلي، وهناك لاقى من الضرب ألواناً فظيعة دون جدوى لأنه كان بريئاً، ومع هذا تقرر إحالته إلى الديوان الحربي في عاليه، فأحيل إليه بتهمة الجاسوسية، وبعد محاكمة قصيرة حكم عليه بالإعدام ونفذ به الحكم في عاليه نفسها!.

• الجاسوس الألماني يتدخل!

وكان في ساحة البرج دائرة للاستعلامات الألمانية يديرها السيد كارل هوبل، وكان رغم وداعته وتظاهره بالهدوء، من أخطر جواسيس الألمان ومن العاملين على نشر الدعايات الألمانية في البلاد!.

وقد عرف كارل هوبل هذا بما كان من حادث الميجور الذي رفض أن يطلع رؤساءه على سرقة الأسرار التي يحملها كي لا يؤاخذ على عمله، إلا أن كارل ما لبث أن عرف بواسطة جواسيسه العديدين ما كان من أمر الضابط الألماني، فشدد الرقابة على روزا، وسرعان ما تمكن جواسيسه من معرفة علاقتها بشاب يهودي يدعى كوهين أوينبرغ كان يتردد عليها من فلسطين!..

وظل يراقبها حتى تمكن، بعد هذه الحادثة بثلاثة أشهر، من

توقيف كوهين، وصادر منه بعض الأوراق السرية الدقيقة المتعلقة بمسلك بعض الضباط الألمان في بيروت ومخابراتهم مع القيادة فقاده إلى الميجور فون برت زعيم الاستخبارات الألمانية في حيفا، وبعد مرور يومين صدرت الأوامر باعتقال روزا ووالدتها وسيقتا بصورة سرية إلى حيفا وسلمتا إلى فون برت، فانصرف هذا الأخير للتحقيق معهما لمعرفة أسرارهما!!

• مصير روزا:

أما روزا فإن مصيرها ظل مجهولاً، فالقضية بقيت بين يدي فون برت نفسه الذي لم يسلمها إلى الديوان الحربي كما يقتضيه واجبه العسكري!!

والسبب في ذلك أن الألمان، بعد أن تحرّج موقفهم في أوروبا، أرادوا أن يستميلوا إليهم اليهود، فتساهلوا معهم كثيراً في خيانة الترك، ويقال إن فون برت أخلى سبيلهم بعد أن وعدوه بالعمل لصالح ألمانيا، إلا أن الحقيقة ظلت مجهولة إلى الآن ولم يعثر بين الوثائق التركية على وثيقة ما تدل على حقيقة مجرى القضية وما كان من مصير هؤلاء الجواسيس!!

• عودة إلى سارا!

عندما اشتدت المجاعة في سوريا ولبنان بوجه خاص، رأى الإنكليز أنهم بحاجة لمعرفة تأثير الحالة الروحية في هذه البلاد على أفراد الشعب، فأوفدوا لهذه الغاية سارا أرونسون فجاءت إلى بيروت ونزلت في فندق دوتشرهوف واجتمعت بكثير من رجالات بيروت ولبنان بواسطة نور الدين بك ثم سافرت إلى دمشق!..

ولما وقعت حوادث اعتقال رجال سوريا وإعدام بعضهم في 6 أيار (مايو) سنة 1916 كانت سارا بين بيروت ودمشق!.

❀ ❀ ❀

وراقبت دوائر الاستخبارات التركية هذه الزيارات المتعددة، فارتابت.

كما بدأت ترتاب بـ نور الدين بك نفسه، لأن نور الدين وهو الثري صاحب الأملاك في بيروت وصاحب المنزل الخاص به، ترك منزله وأقام بفندق (بسول) شهوراً!!

ويقول الرجل في أحاديثه أنه انتقل من منزله إلى فندق بسول ليكون قريباً من فندق (دوتشرهوف) النازلة فيه سارا، ولكن منزله قريب أيضاً من هذا الفندق، فلماذا عمد إلى هذا التدبير؟!

ولماذا جاءت سارا إلى بيروت ودمشق في الوقت الذي تحرجت فيه الأزمة السياسية ووقعت فيه حوادث من الخطورة بمكان عظيم؟!

هذه الأمور رابت جواد رفعت بك مدير الشعبة الأولى المولج بشؤون دوائر الاستخبارات، فأوعز إلى مديرية شرطة بيروت بمراقبة سارا ونور الدين بك مراقبة شديدة، إلا أن أحداً لم يتمكن من معرفة شيء من هذا السر الذي يجمع بين نور الدين وسارا، ولم يتمكنوا من أن يجدوا بينهما غير غرام عادي، إلا أن المعلومات الرسمية التي كانت ترد يومياً عن حركات نور الدين بك والفتاة لم ترق إدارة الاستخبارات العسكرية فقررت توسيع تحقيقاتها!!

والديوان الحربي العرفي، بعد اكتشافه الوثائق في القنصلية الفرنسية، ومحاكمته رجالات العرب، جمع كثيراً من المعلومات السياسية من ولايات دمشق وحلب وبيروت ومتصرفية القدس المستقلة

عن كل من اشتغل في الحركة الإصلاحية، ورروجعت هذه الأوراق وما يتعلق منها بنور الدين بك فعثر:

أولاً: على تقرير مؤرخ في 20 أيار (مايو) سنة 1913 يقول إن نور الدين جاء في ذلك الوقت إلى حيفا، ونزل في (الفندق الكبير) فيها وكان هناك فارس بك الخوري من إصلاحيي دمشق، وغاية فارس بك من القدوم المخابرة مع شكري بك العسلي وعبد الوهاب بك الإنكليزي مفتش العدلية العام ومعين بك الماضي وعبد الله مخلص ونجيب نصار صاحب جريدة «الكرمل» لتأييد الحركة الإصلاحية في البلاد، ولمفاوضة السيد إيليا زكا صاحب جريدة «النفير»، ليكف عن مدح الاتحاديين والانضمام إلى الإصلاحيين!..

وتقول هذه التقارير الواردة من دائرة بوليس حيفا ما نصه:

«لم يكن فارس بك الخوري يعرف نور الدين بك، فسأل عنه صاحب الفندق، فلما عرفه إليه وعرف أنه من عائلة (ب)، المعروفة بالوطنية والإخلاص، اطمأن إليه وانصرف إلى محادثته في المواضيع السياسية العربية والحركة الإصلاحية والنهضة العربية، ولكن نور الدين بك لم يكن في ذلك الوقت ليهتم بمثل هذه الأحاديث، إذ في اليوم الثالث لوصوله جاءت إلى الفندق المذكور يهودية حسناء هي سارا أرونسون العالمة في النباتات، فانصرف إليها بأجمعه وعرفها في ذلك الوقت إلى هؤلاء السادة!!».

وهذا التقرير الذي أوردنا خلاصته في ما تقدم دل جواد رفعت بك على أن سارا كانت على اتصال بنور الدين بك منذ سنة.

❀ ❀ ❀

ثانياً: عثر بالتاريخ نفسه على نسخة برقية مرسلة من سارا إلى

نور الدين تدعوه فيها لموافاتها إلى (زمارين)، وعلى تقرير من إدارة بوليس حيفا عن وصول الرجل إلى حيفا ثم ذهابه إلى زمارين واجتماعه هناك بسارا! وبعد هذا الحادث بأيام قليلة عثر على برقية بإمضاء نور الدين مرسلة منه إلى صديقه عبد الرحمن باشا اليوسف، عضو مجلس الأعيان العثماني الموجود في دمشق يدعوه فيها لاستقبال البارون دي روتشلد الزعيم الصهيوني!!

وراجع الضابط التركي سجلات الشرطة في ذلك الوقت فتبين له من التقارير السرية أن عبد الرحمن باشا اليوسف، وهو البعيد عن التدخل في الشؤون السياسية، جمع حوله عدداً كبيراً من وجهاء البلاد وذهب بهم إلى محطة دمشق، حيث استقبلوا روتشلد استقبالاً فخماً، إلا أنه لم يجد في هذه التقرير ما يؤاخذ عليه الباشا ورفاقه، لأن أعضاء الحكومة وفي مقدمتهم عارف بك الماردیني والي الولاية وقائد الجند ومفرزة من الدرك والبوليس، استقبلوا أيضاً على المحطة البارون روتشلد استقبالاً فخماً!..

وظهر له أيضاً أنه عندما جاءت الدارعة حميدية إلى بيروت كانت سارا ونور الدين في بيروت، فزارا الدارعة، وقد استقبل قائدها أحمد رؤوف بك، نور الدين، بحفاوة ودعاه إلى تناول الغداء على مائدته ثم أهدى إليه رسم الدارعة مع بطاقة باسمه وبخط يده! وقد زاد في حيرته أنه وجد في محفوظات الإدارة نسخة من مجلة «الألستراسيون» الفرنسية وفيها خبر هذه الزيارة مع رسم أحمد رؤوف بك ونور الدين بك معاً!!

وقد زادت هذه المعلومات في حيرة الضابط جواد رفعت بك، لأنه لم يجد في جميع هذه المعلومات التي حصل عليها ما يدل على وجود أدلة راهنة إلا أنه وجد أن الحكومة تنبهت إلى حركات سارا

ونور الدين في بدء الحرب العالمية فوضعتهما تحت مراقبة الشرطة السرية في بيروت وحيفا ودمشق وتلقت عنهما تقارير كثيرة لم يجد فيها ما يريب! فأحد هؤلاء يقول إنه شاهد سارا مع نور الدين في بيروت يتنزهان، وقال آخر أنه شاهدهما يحضران إحدى الحفلات الساهرة في أحد قصور بيروت، وقال ثالث إنه شاهدهما يزوران دار العظم أو دار اليوسف، إلا أن أحداً لم يقل، في تقريره ما يدل على نيات سيئة! وفي النهاية ظهرت نسخة من برقية أرسلها نور الدين بك من حيفا إلى المؤتمر العربي بباريس في تموز (يوليو) سنة 1913 يستنهض فيها همة أعضائه للسعي لتحقيق أماني العرب.

● توقيف نور الدين بك

وقد رأى جواد رفعت في هذه البرقية وسيلة لاكتشاف أسرار نور الدين وسارا، ولهذا استدعاه إلى دائرته في دمشق وحقق معه عن معنى برقيته هذه إلى المؤتمر للدفاع عن حقوق العرب، فأجاب أنه لا يفرق أبداً بين الجنسيات، فجميع الشعوب في نظره على السواء، وقد حاول الضابط التركي استدراجه لمعرفة حقيقة علاقته مع سارا دون جدوى، لأن الرجل أثبت أنه كان عشيق الفتاة، وليس له أي علم بأمر من أمورها السياسية!.

فعرض عليه لائحة بأسماء الأشخاص الذين عرف سارا بهم كعبد الرحمن باشا اليوسف ومحمد فوزي باشا العظم وشفيق بك القوتلي وجميل مردم بك، وغيرهم من رجالات سوريا، فلم ينكر أنه قدم سارا إلى هؤلاء وإلى غيرهم من وجهاء بيروت وسوريا، وأكد أنه فعل ذلك بدافع الصداقة!

عند هذا أخلي سبيل نور الدين بك بعد أن أخذ منه وعداً بأن لا

يخبر سارا بما جرى! . وهدد بصورة ودية بأنه سيكون عرضة لتهمة فظيعة قد تودي بحياته إذا هو أخبر سارا بذلك!

وهكذا عاد نور الدين بك إلى بيروت للاجتماع بسارا التي كانت بانتظاره!

● في حفلة ساهرة

ومع هذه المخاطر الشديدة التي هددت نور الدين، ومع علمه بأن الفتاة باتت موضع شبهة السلطة العسكرية، فإنه لم يتركها، بل تابع علاقته معها كالعادة دون أن يهتم لمعرفة حقيقة نياتها، لأن الغرام حال دون اهتمامه بغير شخصية سارا وجمالها!

وقد وقعت حادثة كادت تودي به وبسارا، وإليك بيانها:

أحيا ألفرد بك س. حفلة ساهرة في قصره حضرها جمهور من علية القوم بينهم سارا أرونسون ورفيقها، وخلال السهرة أحاط طاهر كنعان بك رئيس بلدية بيروت سارا بعناية خاصة أغاظت نور الدين بك وأخافت سارا، فقد خيل إلى نور الدين بك أن طاهر كنعان بك يغازل الفتاة، وخيل إلى سارا من أحاديث الرجل أنه بدأ يعرف حقيقة أمرها، فمضت في مسايرته لتؤكد له براءتها أو لتزيل من أفكاره النيات السيئة التي كان يضمرها الرجل!!

وقد كان من جراء هذا التباين في الأفكار أن تقدم نور الدين بك محاولاً صفع طاهر كنعان بك، فتدخل البعض وكانت سارا أشدهم تحمساً فقد خافت عاقبة هذا الحادث وغادرت على الأثر السهرة، فلحق بها نور الدين، فعاتبته بشدة على تصرفه، وفي اليوم التالي توجهت إلى فلسطين!!.

روكسيلانا(*)
(Roxelana)
(1558 - 1506)

هي إحدى جواري السلطان سليمان الفاتح، من أصل يهودي. وقد تضاربت الآراء حول وصولها إلى قصر السلطان وزواجه منها، وتحكّمها بالتالي في أمور الحكم وما نتج عن هذا التحكم بالتالي من انعكاسات على السلطنة العثمانية وفق ما سمّي فيما بعد بـ «نفوذ النساء» أو «تسلّط الحريم»... الخ. هذا في الوقت الذي عرفت فيه روكسيلانا أيضاً بـ «روسيلاني» و «خرام»... وغيرها. حتى أن بعض المراجع أطلق عليها اسم «الجاسوسة الأولى»... فمن هي روكسيلانا هذه؟ وماذا عن دورها في البلاط العثماني؟

يقال أنه، في (حزيران) يونيو عام 1523 ظفر بعض جنود الدولة العثمانية بقيادة قائدها ووزيرها الأكبر إبراهيم باشا، خلال إحدى غزواتهم لجالاتي (الآن في رومانيا) بفتاة سلافية رائعة الجمال، اسمها روكسيلانا Roxellana.

(*) المرجع: د. حسين مؤنس «الجارية روكسيلانا تتزوج السلطان سليمان الفاتح». دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية ومؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت. دون تاريخ. ص 5 - 61.

ود. سليمان المدني «تركيا اليهودية». دار الأنوار. دمشق. الطبعة الثانية 1998. ص 45 - 72.

كانت روكسيلانا وقتها في السابعة عشرة من عمرها، بيضاء، رقيقة، دقيقة التقاطيع، ذات عيون زرقاء، وشعر أحمر طويل، يسترسل خلف رأسها الصغير في ضفيرتين كبيرتين. وقد امتازت روكسيلانا إلى جانب جمالها الفائق، بقوامها الممشوق، وحديثها الساحر، وفكاهتها اللطيفة.

وكان من حق إبراهيم باشا أن يحتفظ لنفسه وجنوده بأربعة أخماس الغنائم، عبيداً كانوا أم نفائس، وأن يرسل إلى السلطان بنصيبه، وهو الخمس الباقي. ويقال إن إبراهيم باشا قد فعل هذا، واحتفظ لنفسه فيما احتفظ به بروكسيلانا. ويقال أيضاً أنه قد رجع بعد فترة عن قراره، وظن أن السلطان أحق بروكسيلانا منه، فأرسلها هدية منه إليه.

ومهما كان الأمر، فقد سرَّ السلطان سليمان الأول القانوني بهدية وزيره غاية السرور. ويقال أن السلطان سليمان قد وقع لأول رؤيته لروكسيلانا في غرامها، وأنه قد أطلق عليها اسم «خوريم Khurrem». (أو خرام)... (ومعناها الضاحكة أو الباسمة).

وقد كان للأتراك ولع قديم بالجواري السلافيات، لبياضهن، ورشاقتهن، ورقتهن، ورهافتهن. حتى ذهبوا لقلة المعروض منهن، وشدة الطلب عليهن، إلى استيلادهن في بيوت خاصة أنشأوها لهذا الغرض.

فقد كان كل بيت في أنحاء الدولة العثمانية يتمنى أن يضم إليه جارية سلافية. ولكن أثمانهن كانت مرتفعة جداً لقلة المعروض منهن. على عكس الجواري السوداوات اللاتي كان يزخر بهن سوق العبيد المفتوح طوال أيام الأسبوع (ما عدا يوم الجمعة) ويعرضن فيه بأسعار منخفضة. ولم يكن منزل في تركيا يستغني عن جارية سوداء تقوم

بأمور الخدمة العادية فيه، من تنظيف إلى طبخ... الخ.

وكان السلطان سليمان الأول، الذي أطلق عليه الأوروبيون اسم «الفخمي» فلي حين لقبه الأتراك والعرب «بالقانوني» هو الابن الوحيد للسلطان سليم الأول (1467/ 1520). وكان الأخير قد تخلص من والده بإعطائه السم. وقد تولى السلطان سليمان السلطنة في استنبول في 30 (أيلول) سبتمبر عام 1520، بعد تسعة أيام من وفاة والده سليم. وكان السلطان سليمان وقتها في السابعة والعشرين من عمره، ولم يكن متزوجاً، فالتقاليد العثمانية كانت تمنع زواج السلاطين، بعد ما ظفر أحد أعدائهم، في القرن التاسع، بزوجة سلطان عثماني وأجبرها على خدمته عارية أمام ضيوفه. ومنذ ذاك الوقت، أقلع السلاطين الأتراك عن الزواج، وأصبحوا يتخذون ما يشاؤون من الجواري والسراري. فإذا أنجبت واحدة منهن للسلطان ولداً، أصبحت سلطانة، من غير حاجة إلى زواج. ولكن إذا اكتمل عددهن أربع، لم يعد هناك مكان لسلطانة جديدة. فإذا لم تنجب من السلطان ولداً فإنها تنضم إلى طابور طويل من المحظيات أو الجواري.

وكان السلطان سليمان الأول قد سار كآبائه وأجداده على هذه التقاليد. وأنجبت إحدى جواريه، وأصلها من الجبل الأسود (الآن في يوغوسلافيا) جلبهار (ويعني اسمها زهرة الربيع) ابناً، أسماه مصطفى. وكان هو ابنه الوحيد. وأصبحت جلبهار سلطانة السلطان سليمان الأول.

❀ ❀ ❀

وكان السلطان سليمان الأول قد اعتلى عرش السلطنة العثمانية في وقت غاية في الحرج، شهدت فيه الدولة العثمانية والعالم من حولها

أحداثاً جساماً. فجدّه السلطان محمد الثاني «الفاتح» كان قد فتح القسطنطينية في عام 1453، فورث كل أراضي وحقوق وممتلكات الامبراطورية البيزنطية القديمة. وصارت إليه فيما آل إلى والده السلطان سليم الأول. وكان السلطان سليم قد هزم الإيرانيين، في عام 1514، وفتح سوريا ومصر والحجاز بين الأعوام 1516 و 1517. فصارت إليه مخلفات الرسول. وأصبح خليفة المسلمين وحامي حمى الإسلام. ثم ظهرت الدعوى بأن آخر السلاطين العباسيين بالقاهرة قد أوكل إليه الخلافة. وأن الخلفاء العثمانيين هم من نسل رسول الله ﷺ.

وكانت للخلفاء العثمانيين إلى جانب دعاواهم الدينية والإقليمية في الشرق أطماع في أوروبا. وكان السلطان سليمان الأول قد ورث عن والده صورة من خريطة كولومبوس لأوروبا. ورفض أن يعترف بحقوق الملك شارل الخامس (1518 ـ 1556) كإمبراطور لدولة الهابسبورج، واعترف به ملكاً لإسبانيا فقط، وناصر كل دعوى في تحدّيه. كذلك تدخل السلطان سليمان في معارك وراثة تاج القديس أسطفان (سان ستيفن) راعي بلغاريا. وناصر زابولي، المطالب بعرش بلغاريا، ثم لما مات زابولي ضم بلاده إلى دولته.

وفي أوروبا، كانت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا قد انتهت. ولكن انجلترا كانت قد خرجت من عزلتها. وقد حالفت البندقية (وعلى رأسها الدوتشي جرنيني) وأخذتا تناوئان معاً الدولة العثمانية. وكان هنري الثامن (1491/ 1547) قد تولى الحكم في إنجلترا في نفس الوقت الذي تولى فيه السلطان سليمان السلطنة العثمانية. وقد بدأت إنجلترا انفتاحها على العالم بالتجارة ثم الاستعمار. فكانت مراكبها التجارية تشتري الفلفل وبقية التوابل من أسواق الإسكندرية، أو يشتريه وكلاؤها من القاهرة أو السويس. وكان

سعره في هذه المدن يقارب ثلاثة أضعاف سعره في الهند وسومطره وجاوة. لأن العثمانيين كانوا يجمعون المكوس على كل ما يدخل أو يخرج من البلاد، فيصبح سعر السلعة عند خروجها من البلاد ثلاثة أضعاف سعرها عند دخولها.

ولكن في عام 1600 تأسست شركة الهند الشرقية الإنكليزية، وبدأت تشتري الفلفل والتوابل من الهند وجاوة وسومطره مباشرة. ثم أصبح الإنكليز يبيعون هذه الأصناف منذ حوالي العام 1615 إلى العثمانيين أنفسهم، في موانىء تلك البلاد أولاً، ثم في موانىء الجزيرة العربية ومصر. حتى هبط عدد السفن الهندية والعربية التي تصل إلى موانىء البحر الأحمر في مصر وشبه الجزيرة العربية من حوالي الثلاثين سفينة إلى ثلاثة أو أربعة سفن فقط في كل عام.

وفي هذا الوقت أيضاً كان البابا ليو العاشر قد تولى منصبه في روما وكلف ميكال أنجلو بتصوير روائعه. وفي فرنسا، بدأ فرانسوا الأول (1494/ 1547) في بناء قصر اللوفر. وأصبحت فرنسا، مع جنوا، وإلى حد ما إسبانيا، تمالىء العثمانيين، ضد البندقيين والإنكليز.

إضافة لذلك، كان السلطان سليمان الأول القانوني معتدلاً بطبعه مع النساء. فقد هبط عدد الجواري في قصوره إلى أقل من ثلاثمائة جارية، بينما جاوز في أواخر القرن الخامس عشر الخمسمائة جارية. وكان في القصر القديم «قصر الدموع» حوالي ثلاثمائة جارية أخرى. فعند ولاية السلطان سليمان، انتقلت جواري والده، كما هي العادة، إلى القصر القديم المخصص لجواري السلاطين السابقين. وكن يقضين فيه بقية أيام حياتهن.

أما والدته السلطانة فاليدا، فقد ارتفعت مكانتها فأصبحت «السلطانة الوالدة». فأقسم لها أفراد الحريم جميعاً ولاء الطاعة. ولم

تكن واحدة منهن (حتى ولا والدة ابنه مصطفى: جلبهار) يستطعن رؤيتها إلا بميعاد، وبعد ارتداء كامل ملابسهن، ومع وضع أيديهن على صدورهن علامة الاحترام الكامل، ثم الانتظار حتى يؤذن لهن بالجلوس أو التحدث أو الانصراف.

وكان السلطان سليمان يزور والدته كل مساء، ثم بعد أن يجلس إليها دقائق، يستعرض جواري القصر من العذارى أو ممن يوصى بعرضهن عليه لاختيار واحدة منهن لقضاء الليلة معه. فتذهب إلى الحمام لتزيينها، فتزيل الشعر الزائد، وتستحم، ويدلك جلدها، ثم يدهن بالعطور، ودقيق الأرز، وتصبغ كفَّاها وقدماها بالحنّة (لوقف العرق)، وتصبغ أظافرها، وتعطر، وتمشط، وتكحل، ثم تدخل إلى حجرة نوم السلطان. ويقوم على حراسة أبوابها خِصْية للسلطان، ثم توقد شمعتان كبيرتان على باب الحجرة طوال الليل.

وفي الصباح يترك السلطان حجرة نومه إلى حمامه. وكان الحمام يتألف من ثلاث حجرات من الرخام. وفي المغطس كرسيان، وعلى جانبهما مساند. وتسخن مياه الحمام في سخانات من النحاس. وتدفعها إلى المغطس نافورات كثيرة وجميلة. وعندما يخرج السلطان من المغسل، يستريح في حجرة خاصة ملحقة به، ثم يرتدي ملابسه ويبارحه إلى أعماله.

وكان من حق الجارية التي قضى السلطان الليلة معها أن تفتش جيوبه، وأن تحتفظ بكل ما فيها من أموال، ثم تعود إلى حجرتها في الحريم. ويسجل موظفو القصر تاريخ خلوتها بالسلطان، لترقب ميعاد أية ولادة. فإذا أنجبت ابناً أصبحت، كما سبق أن ذكرنا، سلطانة. وإذا لم تنجب، فقد لا ترى السلطان ثانية.

❁ ❁ ❁

كانت الجواري يخترن للسلطان من بين الأسرى، أو الهدايا، أو العذارى المعروضات للبيع في الأسواق. وكانت أجمل هذه الفتيات يشترين له، أو يهدين إليه، من حكام الأقاليم وقواد الجيش.

فإذا ما انتقلت الجارية إلى قصر السلطان، بدأت بالعيش في صالتين كبيرتين: الصالة الكبرى والصالة الصغرى. ويتسع كل منهما لعشرات من الجواري. وهناك يعشن معاً تحت أنظار عيون الخصية الكبيرة والواسعة. ثم يبدأن تعليمهن ومرانهن الطويل في علوم الدين والأدب، والفنون النسائية، كالخياطة وأشغال الإبرة، كذلك فنون رواية الشعر والقصص، والرقص والغناء، إلى غير هذا مما قد ينتظره السلطان منهن.

فإذا ما نجحت الجواري الجدد في تدريباتهن، والتي يشرف عليها جوارٍ أكبر متمرسات، إلى جانب خصية من البيض والسود، يقومون في المقام الأول بحراستهن وتأديبهن، تقدمن في المراتب، حتى يبلغن درجة «الأسطى»، ثم ينتظرن هذا العرض المسائي الذي تحدثنا عنه ووقوع اختيار السلطان عليهن.

ولم يكن يسمح للسلطان بأن يرى جواريه إلا خلال ذلك العرض. فإذا تصادف أن مرّ بين حجراتهن، كان من الضروري أن يتحولن عن طريقه أو أن يحجبن وجوههن عنه.

وقد رويت روايات كثيرة عن حوادث وقعت بين حريم السلطان، أو بين خصيانه، أو عن الشذوذ الذي وقع فيه بعض جواري أو خصيان الحريم. وربما كان هذا طبيعياً إذا تذكرنا أن بعض هؤلاء الجاريات كن يقضين عمرهن في انتظار قضاء ليلة واحدة، قد لا تتكرر، مع السلطان. أو أنهن بعد قضاء تلك الليلة، أو عند وفاة السلطان، يبقين في حجراتهن، أو ينتقلن إلى «قصر الدموع» من دون

أن يسمح لهن بأن يلقين رجلاً آخر.

وقد لاحظ مبعوث البندقية إلى القسطنطينية أوتافينوبوني:

«إنه لم يكن يسمح لأحد بأن يجلب إلى الحريم أشياء قد يستعن بها في إتيان أعمال غير نظيفة، وحتى إذا ما رغبن في أكل الخيار فإنه ما كان يسمح لهن بأن يلمسنه إلا قطعاً مجزأة».

وكان الخصيان البيض الذين يحرسون الجواري يختارون من بين أسرى المعارك التي يخوضها الجيش السلطاني، وأحياناً من بين العبيد. وكانوا يخصون خارج الدولة «لأن التقاليد تمنع خصيهم داخل الدولة العثمانية».

وأما الخصيان السود فكان يؤتى بهم من أنحاء كثيرة من أواسط أفريقيا، ثم يخصون. وكانوا يجلبون في أعداد كبيرة من هذه البلاد إلى حريم السلطان أو إلى الأسواق.

وكان لكل من الخصيان البيض والسود مهام محددة في القصر العثماني. فقد كان الأولون يصطحبون السلطانة والأميرات وبعض المحظيات والأسطوات، بينما يحرس الآخرون بقية الجواري. وكان رئيس الخصية البيض يرأس الخصيان جميعاً. ولكن رئيس الخصيان السود استقل بعد ذلك بخصيانه، وأصبحت مكانته في مثل مكانة قرينه الأبيض.

ويقول فرانسيس إليوت العالم في تاريخ الدولة العثمانية:

«كان رئيس الخصية، كيسلر آغا، يدور في أنحاء القصر بزيناته المصنوعة من الذهب الخالص، والتي كانت تخرج لكثرتها وثقلها أصواتاً أشبه بأصوات الأجراس، وقد يتقدم رئيس الخصيان مجموعة من الأميرات أو يصطحب موكب الملكة الأم مع جواريها في زيارة

للسلطان، أو يشرف على تزيين الجارية المختارة للسلطان، أو يستقبل فوجاً جديداً من العذارى: الألبانيات، أو اليونانيات، أو الجورجيات، أو القوقازيات، وكلهن رهن إشارة من السلطان. وقد قدّمن هدايا له، أو اختطفن من مواطنهن، أو اشترين من الأسواق. فيشرف على تزيينهن، وتعطيرهن، حتى يأسرن العيون. إنه عالم من الفتنة يحكمه خصيان، يتمتع بسلطات لا يماثلها إلا سلطات السلطان».

إزاء ذلك، لا بد من الإشارة إلى الحياة اليومية في سراي السلطان، بغية توضيح الصورة على حقيقتها.

فعندما استولى السلطان محمد الثاني «الفاتح» على القسطنطينية في عام 1453 بنى قصراً رائعاً يجمع بين شطري المدينة: الأوروبي والآسيوي. ولكنه وجد، عندما أتمه في عام 1455، أن حركة المدينة من حوله تفسد عليه هدوء القصر، فقرر أن يبني قصراً جديداً على طرفها المطل على البوسفور وبحر مرمرة. وقد انتهى العمل في القصر الجديد في عام 1464، وتم بناء سوره الهائل في عام 1478. وبقي هذا القصر: السراي (السيراجليو في اللغات الأوروبية) هذه القلعة الجبارة والمدينة الكاملة بعدها مقراً للحكم العثماني أكثر من 450 عاماً.

كانت الدولة العثمانية وقتها ضخمة بمقاييس هذا الزمان. فقد بلغ تعداد تركيا وحدها في أوائل القرن السادس عشر حوالي 15 مليوناً، وعند نهاية حكم السلطان سليمان حوالي 20 مليوناً. وبلغ تعداد استنبول في عام 1477 حوالي مائة ألف شخص.

وكانت استنبول، ولا زالت، من أجمل مدن العالم. فقد أقيمت فوق سبعة تلال، تحيط بها مياه البوسفور وبحري مرمرة والقرن الذهبي، وتزينها المآذن والقباب المذهبة، وتتخللها غابات السدر، وقصور الرخام والبحيرات الصناعية، والنافورات، والشوارع الواسعة،

وأيضاً أكواخ الطوب، والحواري والأزقة الموحلة. وكان يسكنها جماعات من كل الأجناس والديانات. وتطل عليها ضاحية بيريوس، ذات الفيلات الأنيقة المنحدرة السقوف. وكان يسكن بيريوس مثل استنبول خليط من الأتراك واليونانيين واليهود والأرمن والأوروبيين. وكان كثير من يهودها قد وجدوا فيها ذراعين حانيتين بعد أن طردوا من إسبانيا وشمالي أفريقيا.

وكان القصر الكبير والمعروف بالسراي محاطاً بحدائق خاصة واسعة. ويضم 5000 رجل وجارية وخصي. وكان يبدأ بالبوابة الامبراطورية المسماة أحياناً بالبوابة الوسطى، والتي تؤدي إلى الفناء الثاني أو الخارجي، وإلى يمين الداخل توجد المطابخ، والمخابز، ومقر إقامة الطباخين والخبازين، وإلى يساره الاصطبلات (4000 حصان) ومخازن الوقود. وكانت الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية تقع خلف هذا الجناح. ثم يجد الداخل إلى يساره كذلك سلاملك السلطان، حيث كان السلطان يستقبل رجال الدولة والشعب تحت لافتة تعلن «قصر العدالة». ثم صالة القلعة، حيث كان يطيب للسلطان أن يقضي بعض الأوقات ويترك لوزيره الأكبر أو الصدر الأعظم مهمة استقبال الوافدين. وفي الدور العلوي كانت تقع الإدارات السلطانية والحكومية. فقد كان السراي مكان إقامة السلطان كما كان المقر الرئيسي لإدارة شؤون الدولة العثمانية.

وفي الركن الخلفي كان يقع مقر إقامة الخصيان السود، ثم قصر الملكة الوالدة. وبعد ذلك حجرات العبيد، والمخازن، ثم الفناء الخلفي.

فإذا ما عبر الداخل بوابة الإنشراح التي تفصل بين الفناء الخارجي والداخلي، واجهته حجرة العرش، ثم المكتبة الملكية، وإلى

اليسار قاعة الصالون الثالث، حيث كانت تعقد جلسات مجلس أهل الشورى، من السبت إلى الثلاثاء من كل أسبوع، ثم مقر إقامة السلطان، ثم الفيلات والأجنحة السلطانية، ويفصل بينها الطريق الذهبي. وهو طريق مرصوف، يربط جناح السلطان بأجنحة السلطانة الأم والأجنحة السلطانية. وإلى الخلف، كان يوجد السجن المسمى «القفص» الذي كان يسجن فيه الأمراء العثمانيون. وكان ظهر القفص يطل، مع ظهر الفيلات والأجنحة السلطانية، على الحدائق الخلفية التي تؤدي إلى البحر.

ويلاحظ أن البرتوكول السلطاني كان يضع السلطان، ثم السلطانة والدته، في المرتبة الأولى. وبعد ذلك كل سلطانة أنجبت ولداً حتى السلطانة الرابعة، ثم المحظيات والجواري المميزات. ثم بقية الجواري، وبينما كان يخصص للسلطانة الأم جناح كامل، كان العشرات من عذارى الجواري الصغيرات يقمن معاً في إحدى الصالتين الكبيرتين.

وكان نوع الملابس وأغطية الرؤوس التي يرتديها أعوان السلطان، ومقدار ما يزينها من فرو وجواهر وذهب وريش طيور، هو أهم ما يميز مراتبهم. فالوزير الأكبر كان يلبس معطفاً من الفرو، ويضع على رأسه قلبقاً مخروطي الشكل، تحيط به الخيوط الذهبية. ويلبس الوزراء الآخرون الملابس الخضراء، بينما يلبس رجال الدين الملابس البيضاء أو الزرقاء، ورجال البلاط الملابس البنفسجية.

وكان الطباخ الأول يضع على رأسه غطاء رأس في شكل الطرطور الطويل، أقرب إلى شكل الزجاجة الحالية (وربما كانت أصل غطاء رأس الطباخين التقليدي الحالي). ويحمل على كتفه ملعقة خشبية ضخمة.

وكان يحيط بالسلطان على الدوام حامل سيفه، يحمله له في صندوق من القطيفة. ورئيس الصيادين بالصقور (بازدار) وعلى رأسه غطاء رأس مذهب في شكل بوق. وكان للسلطان خدم متخصصون في حمل العطور الخاصة به، وكانت وظيفتهم السير في موكبه ونثر العطور على ملابسه وفي طريقه.

وكان رئيس الخصيان البيض يرافق السلطانة الأم وبقية السلطانات والأميرات في تحركاتهن. ويحرس رئيس الخصيان السود بوابة الإنشراح، ويشرف على اتصالاتها بالعالم الخارجي. وكان كل منهما يلبس أرواب الحرير التي يغطيها الفرو، ويحمل فوق رأسه طرطوراً من الفرو يبلغ طوله متراً واحداً.

وكان لكل عمل في القصر ناس يقومون به. ولكل فئة منهم رئيسها. فقد كان للسجاد مثلاً ستون رجلاً، مهمتهم العناية به وفرشه والمحافظة عليه. وللصقور 200 حارساً. وللخبز 250 خبازاً. وللطبخ 200 طباخاً. وكان عجن وخبز الخبز من أهم الأعمال. ومرتبات العاملين فيه عالية. ومكافآتهم السنوية من الأعياد والمناسبات كبيرة. وهذا للخوف الدائم في كل البلاطات القديمة من وضع السم فيه أو في الطعام. وأيضاً لأن موظفي السلطان وجنده كانوا يتسلمون راتباً يومياً منه قدره عشرة أرغفة لكل فرد. ولكن هذه الأرغفة كانت من الخبز الأسمر، المصنوع من القمح العادي المستورد من اليونان. وأما خبز السلطان فكان يصنع من دقيق بروسة ولبن الماعز.

وكانت بعض ولائم السلطان تتألف من أكثر من 100 طبق متوالية، تتناقلها أيدي 200 خادم، يلبسون أغطية رؤوس حريرية حمراء تزينها خيوط ذهبية. ويقفون في صف طويل، وهم ينقلون الأطباق المغطاة من المطبخ إلى حيث تقام الوليمة. ثم ينقلون

الأطباق واحداً بعد واحد، بعد كشف الغطاء عن كل طبق يقدم. ويتم ذلك قبل أن يقدموا الطبق التالي. فلا غرابة أن الوليمة الواحدة كانت تستغرق ساعات كثيرة.

وكان الطبق الرئيسي للوليمة يحتاج إلى 200 خروف أو ما يماثلها من اللحوم. وتنتهي الوليمة بالفواكه والحلويات التركية.

وكانت هذه الأطعمة تأتي من كل أنحاء الدولة. فمن مصر البلح والفواكه، ومن اليونان الزيت، ومن مولدافيا الزبدة الخ.

ولم يكن شرب الخمور من لوازم تلك المآدب. وإن كان بعض السلاطين العثمانيين، كمراد الرابع، قد بالغوا في شربها مبالغة كبيرة.

وبعد ذلك، نصل إلى جهاد وفتوحات السلطان سليمان القانوني، حيث كانت الجارية «روكسيلانا» إحدى ثمرات هذه الفتوحات التي قام بها السلطان وكبير قادته إبراهيم باشا إلى خارج حدود السلطنة، لا سيّما إلى البلاد السلافية.

فقد توطدت أواصر الصداقة بين السلطان سليمان الأول وقائده إبراهيم باشا منذ كانا صبيّين يمرحان معاً في قصور استنبول، ويأكلان معاً، ويخرجان للصيد معاً.

وكان إبراهيم باشا مملوكاً صغيراً يوناني الأصل، وكان يكبر السلطان سليمان بسنة واحدة. وقد وُلد مسيحياً في بلدة بارجا باليونان، ثم اختطفه القراصنة، وبيع عبداً للسلطان. ثم تعلم اللغة والفلسفة والموسيقى. وكان يتكلم اليونانية والتركية والعربية والإيطالية والفارسية. ثم انضم إلى حاشية السلطان، وأصبح رئيساً لفرقة من السلطانية. ثم رئيساً للبازدارية، أي المعنيين بشؤون صقور الصيد. ثم ضابطاً للقصر. ثم أنعم عليه برتبة الباشوية، وأرسل حاكماً لأحد الأقاليم.

وعندما تولى السلطان سليمان الحكم في عام 1520 جعل إبراهيم باشا وزيراً. وقد أخذه معه في حملته في العام التالي، 1521، لغزو المدينة البيضاء «بلغراد» التي عجز أجداده عن الاستيلاء عليها مرتين.

وكان لا بد، قبل بدء الحرب، من المرور بالإجراءات المعتادة في هذه الأحوال. وأولها استصدار الفتوى اللازمة بشرعيتها. وثانيها وضع سفير بلادها في السجن. وثالثها تسليم الصدر الأعظم الأمر بشنّها، وإهدائه سيفاً مرصعاً بالذهب والماس. وأخيراً استدعاء فلكي البلاط، لتحديد الميعاد المناسب لخروج الحملة.

وكان يحيط بالسلطان سليمان، إذا ما خرج للقتال، حاشية وحرس كبيران. ويتحرك خلفه ثلاثة مماليك، يحملون له الماء والأسلحة. وكان كل فارس من المحيطين به يرتدي ثياباً حريرية مرصعة بالذهب والماس، وعلى رأسه غطاء الرأس الذي يدل بريشه وألوانه على رتبته بين أفراد الحاشية. وكان مع كل فرد من أفراد الحاشية غمدان: الأول للسيف، والثاني للسهام. وفي إحدى يديه رمح. وفي الأخرى درع، وإلى جانبه عصاة معلقة بحزامه. وكان فرسان السلطان يستنكفون حمل الأسلحة النارية.

وكان موقع رجال المدفعية، بملابسهم الزاهية، وأغطية رؤوسهم التي تحمل الريش الكثير، في خلف الفرسان، حيث كانوا يلازمون مدافعهم الثقيلة، ويجتهدون في نقلها من مكان إلى آخر. وكثيراً ما حالت ظروف الجو أو الطرق عن وصولها إلى ميدان المعركة إلا بعد فوات الأوان.

وكان السلطان سليمان قد لاحظ الأهمية الكبرى التي أخذت تتمتع بها المدفعية في عهده فجعل اهتمامه الأكبر بها. وجهزها

التجهيز اللائق الذي تستطيع أن تصمد به أمام أعدائه الكثيرين، وخصوصاً النمساويين. فوجه أكثر مماليكه الجدد إليها، وسمح للأتراك، وخصوصاً أبناء الأناضول، بالانضمام إلى فرق المدفعية، وخصص لهم مرتبات كبيرة. وفي إحصاء عن أعداد الفرسان والمدفعيين أيام السلطان سليمان وبعدها نلاحظ أن أعداد الأخيرين قد زادوا زيادة كبيرة على حساب أعداد الأولين:

زمن السلطان سليمان	1609	1630	
الفرسان	87000	45000	28000
المدفعيون	1600	37000	50000

وكان المصدر الرئيسي لجنود جيش السلطان في القرن الرابع عشر هو المماليك، من العبيد وأسرى الحرب، ومن ينضم إليهم من أبناء العائلات الكبيرة في الأقطار التي تضمها الدولة. وكانت العادة أن يحتفظ ببعض أبناء العائلات في قصر السلطان كضمان لاستتباب الأمور في بلادهم.

ولكن السلطان كان يتسلم أيضاً أفواجاً منتظمة من الذكور المسيحيين في هذه الأقطار. وكانت استنبول ترسل بعثة سنوية لاختيارهم، تتألف من حاكم وقاضي كل أقليم وبعض العسكريين. وكانت هذه البعثة تنتقي حوالي 1000 صبي من مختلف الأقاليم كل عام، فإذا وصل هؤلاء الصبية إلى استنبول أصبحوا عبيد السلطان. واهتم السلطان بنفسه، وبإشراف رئيس الخصيان البيض، بتدريبهم وتعليمهم أمور الدين، واللغة، والعادات والتقاليد التركية، وشؤون الإدارة والحرب. وكثيراً ما سلم رجال السلطان بعض هؤلاء الصبية لفلاحي الأناضول لتعودهم العادات والتقاليد التركية، ثم يعودون بعد

ذلك للخدمة في جيوش السلطان.

وغنيّ عن القول أن هؤلاء الصبية، أو العبيد، كانوا يقطعون كل صلة لهم بأوطانهم وعائلاتهم، ويفخرون بأنهم عبيد السلطان. ويتمنون أن يموتوا من أجله. وكان المميزون منهم يلحقون بحرس السلطان، وبوظائف القصر والدولة، ويلحق الباقون بالجيش.

وكان جنود السلطان يحملون معهم بعض الطعام الجاف: دقيق وملح وتوابل. فإذا جاء وقت الطعام، كانوا يمزجونها بالدقيق أو اللحم أو العدس أو الفول أو غيرها من البقول، ويضعونها في الماء، ويغلونها، ويُقَلِّبون الخليط ثم يأكلونها. وكثيراً ما كانوا يحملون بعض لحم البقر المجفف، وينقعونه في الماء الساخن كذلك، ويأكلونه. وكان من الطبيعي في أوقات الحرب أن يستولي جند السلطان دون ثمن على كل ما تجود به الأرض التي يمرون بها من محاصيل، ويؤذون أصحابها أذى شديداً. فإذا لم يتيسر لهم من ذلك شيء، اضطروا إلى أكل خيولهم.

❀ ❀ ❀

وفي شباط/ فبراير عام 1521 تفقد السلطان سليمان بعض وحدات جيشه في سرايه. ثم غادر استنبول بين مظاهر الفخامة والإعزاز إلى ميدان الجهاد. وكانت المؤن والذخائر قد سبقت الحملة، محمولة على 3000 جمل. وأعدت 30000 جمل أخرى لنقل بقيتها. وقد فرض السلطان سليمان الحصار ـ باتفاق مع الصرب ـ على بلغراد طوال ستة شهور حتى استسلمت. وعبرت قوات الدولة العثمانية نهر الدانوب لأول مرة، ثم عاد السلطان بعد نصره المعزز إلى استنبول حيث استُقبل فيها استقبال الأبطال.

وكان إبراهيم باشا قد أبلى بلاءًا حسناً في حصار بلغراد، ثم في قمع فتنة عسكرية في سوريا في نهاية ذلك العام. وفي العام التالي، حوصرت جزيرة رودس طوال 145 يوماً، حتى استسلمت. ولكن خسائر السلطان سليمان في هذه الحرب كانت كبيرة جداً، حتى اضطر لأن يركن للسلم سنوات.

وفي عام 1523 عين السلطان سليمان إبراهيم باشا صدراً أعظم وقائداً لجيوشه. وفي هذا العام أيضاً أهدى إبراهيم باشا للسلطان سليمان جاريته روكسيلانا على ما ذكرنا، فأحبها السلطان حباً عارماً. وما هو إلا عام حتى أنجبت روكسيلانا له أول أبنائهما الخمسة: الأمير سليم. وأصبحت هي سلطانته الثانية.

وفي أيار/ مايو عام 1524 زوج السلطان سليمان إبراهيم باشا من شقيقته. واحتفلت الدولة بهذا الزواج احتفالاً كبيراً، أقيمت فيه المآدب الشعبية، والاحتفالات الترفيهية، على المسرح البيزنطي طوال تسعة أيام. ثم أرسل السلطان سليمان إبراهيم باشا في الفترة من 24 آذار/ مارس حتى 14 حزيران/ يونيو عام 1525 إلى القاهرة لقمع فتنة أحمد باشا.

وبعدما عاد إبراهيم باشا إلى استنبول، خرج في العام التالي، 1526، مع السلطان سليمان لمحاربة الهنغاريين (المجر). وقد قضت الجيوش العثمانية على الجيش الهنغاري في ساعتين فقط في معركة «موهاك»، وقُتل ملكهم لويي، وأُفنيت فرسانهم تماماً، بعد تدخل حرس السلطان الخاص. وقد بلغ عدد القتلى في موهاك 200000 قتيل، والأسرى الذين عاد بهم السلطان إلى استنبول 100000. ثم تقدمت قوات السلطان إلى «بودا». ونجح السلطان سليمان في القضاء على مقاومة الهنغاريين. وتوج حليفه زابولاي ملكاً، ووضع بيديه تاج

القديس اصطفان (سان ستيفن) على رأسه. وقد ضمت مملكته كما ذكرنا إلى الدولة العثمانية عندما توفي زابولاي في عام 1540.

ثم حدث في عام 1527، أن استرد ملك النمسا، فرديناند، مدينة بودا. حتى انتزعها منه السلطان سليمان مرة أخرى في عام 1529. والتفت السلطان سليمان بعد ذلك إلى «فيينا» ذاتها. وكانت وقتها مدينة صغيرة من الأديرة والكنائس التي تحيط بكاتدرائية القديس اصطفان. وقد حاصرتها جيوش السلطان سليمان طوال شهري أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر عام 1529. وكان معه 250000 مقاتل و 300 مدفع و 400 سفينة، تغطي لكثرتها مياه الدانوب. ولم يكن يدافع عن فيينا غير 16000 مقاتل و 72 مدفعاً، تقف كلها خلف سور هائل يتجاوز عرضه خمسة أقدام. ولكن الأحوال الجوية عاقت حركة قوات السلطان سليمان، ومنعت نصب كل مدافعه حول فيينا. حتى اضطر السلطان سليمان في النهاية إلى رفع حصاره، والعودة بقواته إلى استنبول.

ولكن في الليلة الأخيرة، قبل فك الحصار، اختار السلطان سليمان أجمل ما جمع من كنوز، وأثمن العبيد، ثم حرق وقتل الباقين، تحت أنظار النمساويين المحاصرين بالمدينة.

والغريب أنه عندما عاد السلطان سليمان إلى استنبول، بعد فشله في الاستيلاء على فيينا، استُقبل فيها استقبال الفاتحين بادعاء نجاحات أخرى له. ولكن هذه كانت أول مرة يخفق فيها هجوم السلطان سليمان عن تحقيق الأهداف التي وضعها نصب عينيه.

❀ ❀ ❀

وقد وصف براجادينو سفير البندقية في استنبول إبراهيم باشا كما يلي:

«إبراهيم باشا رجل شديد صفرة الوجه، نحيل الجسم، تصدمك فيه أنفه المعقوفة والبارزة، وعنقه الطويل. ولكن أشد ما يدهش الناظر إليه هو نحوله وضعف بنيانه. ومع هذا فإن قبضة يده إذا ما صافحك قوية، على ما تأكدت بنفسي عندما قبضت عليها لتقبيلها. ومع ذلك فإن طبيعته تلوح غير سوية، وملاحقته للنساء لا تكل. وهو متعاظم، ومتسرع، ولكنه أيضاً غاية في الكرم».

وكان إبراهيم باشا قائداً ماهراً، ووزيراً قديراً. وقد جعل السلطان سليمان راتبه، حين أصبح صدراً أعظم، ضعف الراتب المعتاد. وبنى إبراهيم باشا لنفسه قصراً رائعاً يحاكي قصر السلطان. وكان موكبه حين يخرج في أنحاء استنبول يماثل، على صغره، موكب السلطان. فقد كان له حاشية من الحراس، وعربة خاصة يجرها اثني عشر حصاناً، وكان له يخته الخاص فوق مياه البوسفور، يحركه اثني عشر مجدافاً.

وقد توطدت صداقة إبراهيم، باشا بالسلطان سليمان خلال تلك السنوات الأولى من عهد السلطان. حتى قيل إن الرجلين كانا ينامان في خيمة واحدة، وأنهما كانا يتبادلان الثياب، وأنهما إذا افترقا لبعض الأعمال، لم يكفا عن الكتابة، كل منهما للآخر.

وقد أزعج كل هذا رجال القصر العثماني وأفراد الشعب التركي على السواء، ولم يطمئن أحد منهم إلى مثل هذه العلاقة الوطيدة بين سلطان ينتسب إلى رسول الله ﷺ وبين أحد عبيده، ووجدوا جميعاً مطعنهم في أن إبراهيم باشا كان يقبل كل أشكال الهدايا، وأنه لم يكن يعين أحداً في منصب حتى يوفيه حقه كاملاً من هذه الناحية.

السلطان سليمان يتزوج روكسيلانا

في نهاية عام 1531 حاصر النمساويون بودا مرة أخرى. فخرج السلطان سليمان في العام التالي لملاقاتهم. واستولى في آب/ أغسطس عام 1532 على جينز، ثم على أجزاء كبيرة من النمسا. واسترد كورون. وعقد في حزيران/ يونيو عام 1533 اتفاقية سلام مع الملك فرديناند.

وفي نفس الوقت، عين السلطان سليمان قائد البحر اليوناني الأصل خير الدين بارباروسا قائداً بحرياً للدولة العثمانية، وأهداه سيفاً مرصعاً، وبنى له أسطولاً سريعاً وحديثاً من السفن الصغيرة والسفن العالية الصواري، ذات الخمسين مجدافاً طويلاً، يقوم على التجديف فيها الأسرى والعبيد، وعلى جانبي كل سفينة نصبت المدافع التي يطلقها العثمانيون. وقد عاث بارباروسا في أنحاء البحر الأبيض، وسيطر على شرقيه وجنوبه سيطرة تامة. ثم اتهم سلاطين الحفصيين في تونس بالكفر لأنهم حالفوا الأسبان النصارى، واحتل بلادهم، وهي تونس. ولم يكن بارباروسا ينسى نصيب السلطان من الغنائم في كل غارة أو غزوة يقوم بها. وقد وصف هيوبارد ما حمله بارباروسا للسلطان في إحدى زياراته لاستنبول كما يلي:

(كان يتقدم موكب بارباروسا إلى السلطان 200 عبد صغير في ملابس قرمزية (رمز الدولة العثمانية) يحمل كل منهم بين يديه وعاء مملوءًا بكامله بالذهب أو الفضة، ويمشي خلفهم 30 عبد آخر يحمل كل منهم كيساً من النقود الذهبية، ومن خلفهم 200 عبد آخر يحمل كل منهم كيساً من مختلف أنواع النقود، وأخيراً 200 رجل يحمل كل منهم ثوباً من القماش».

وكان غنى السلطان أكبر من أن يصفه لسان، وأغرب من أن يصدقه عقل. فقد كان الذهب والفضة والفراء والحرير في كل أنحاء قصوره. وحتى حوائط ونوافذ الكشك القريب من بوابة الإنشراح، والذي كان السلطان سليمان يحب أن يغفو فيه بعد الظهر، كانت مغطاة بالذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة. ولم يكن السلطان سليمان يلبس الملابس مهما ارتفعت قيمتها، مرتين. فكان إذا لبس الثوب مرة وخلعه، أعطاه لأحد خدمه. وكانت الجواهر ترصع أنواع الفراء التي يتزين بها. وكان يأكل على مائدة مصنوعة من الفضة، ومن أطباق فضية مرصعة بالجواهر. وكان يشرب النبيذ في كؤوس محفورة بكاملها في قطعة واحدة من اليشب، وهو التركواز. وقد قال أحد الرحالة الأجانب عن جواريه «إنهن ينمن بين ملاءات الحرير صيفاً والفراء شتاءًا». وأن «الخفّ الذي كانت تضعه الجارية التركية في قدمها كان أثمن من ثوب المرأة الأوروبية». وأن «نصف أيام شعبه كانت أعياداً لا يعملون فيها شيئاً».

وقد وصف سفير البندقية في استنبول السلطان سليمان بأنه:

«كان أسمر البشرة، طويلاً، ورفيعاً. وله جبهة عريضة، وعيون سوداء نفاذة. وأنفه معقوفة، فوق شارب طويل. وذقنه طويلة، متفرعة، وغير كثّة. وأما شفتاه فتنمّان عن القسوة الشديدة.

«وكان السلطان سليمان دقيقاً في أمور البروتوكول. حريصاً على أداء صلوات الجمعة في مسجد آيا صوفيا. وكان السلطان يركب حصانه الأبيض الذي تزينه الجواهر، ويخترق بموكبه المدينة إلى الجامع وسط حشود الأهالي. ويلبس السلطان سروالاً حريرياً زاهي الألوان، يغطيه فرو الأرمين، وهو الفرو الأبيض البالغ النعومة. ويضع على رأسه عمة بيضاوية عريضة ثبتت فيها الجواهر

حول ريشات الطاووس التي تحملها. وخدمه من حوله يعطرونه ويعطرون الطريق».

ويكون في معية السلطان في هذا الموكب حامل المفاتيح والأختام وحامل السيف ورئيس خزانة الملابس وحامل معطف المطر. وكان يحمل طرف ثوبه عدد من العبيد الذين يتمايلون مع خطوات حصانه إلى اليمين، وإلى اليسار، ويحيط بهم جميعاً جنود السلطان وخدمه وعبيده.

فإذا وصل موكب السلطان إلى المسجد، تقدم رئيس خزانة ملابسه فخلع عنه معطفه، ورئيس المماليك فخلع حذاءه الطويل الرقبة، وثبت في قدميه خفين من الجلد الرقيق، بينما يتوقف السلطان برهة حتى تعطر ملابسه وطريقه قبل أن يدخل المسجد.

وعند نهاية الصلاة يعود السلطان إلى القصر مع ضيوفه لوليمة غداء الجمعة، فيكون في استقبالهم غلمان السلطان، الذين ينحنون واضعين أيديهم على أفخاذهم، ويرشدون كل ضيف إلى مكانه من المائدة الضخمة المصنوعة بكاملها من الفضة، ثم تبدأ الوليمة الكبيرة.

ولكن الرحالة البندقي دانيلو لودفيزي، وصف السلطان سليمان في عام 1534، أي وهو في حوالي الأربعين من عمره، بأنه كان. . «طويلاً ورفيعاً. تصدمك أنفه المعقوفة. وقد ترك أمور الدولة لوزيره إبراهيم، ومال إلى الكسل والتراخي، ولم يعد على يقظته الأولى، بل لم تعد له القوة أو الحذر اللذين ينتظران من رجل مثله».

وكان السلطان سليمان قد ترك الدولة تدريجياً لوزيره الأكبر إبراهيم باشا، وأصبح يقضي جلّ وقته مع روكسيلانا، فلم يعد يكتفي

بقضاء الليل، وكل ليلة، في أحضانها، ولا بقضاء ساعات راحته معها، وإنما أصبح يقضي ساعات عمله في الحديث معها، يناقشها في أمور الدولة، ويأخذ رأيها في مشاكلها. ولم يكن يحاول إخفاء ما يفعله، بل لعله أصبح يتعمد إظهاره، حتى كتب أحد الرحالة الأجانب:

«إن السلطان سليمان يضمر من الحب لروكسيلانا، ويضع فيها من الثقة، ما يجعل جميع رعاياه يظنون أنها قد سحرته، ويطلقون عليها لهذا السبب اسم الساحرة. وقد أصبح الجيش والبلاط والأهالي يكرهونها، ويكرهون أطفالها منه، ويحبون السلطانة جلبهار وأطفالها».

وكان يقال عن روكسيلانا أنها شديدة القسوة. وقد لقبت إلى جانب الساحرة، باليهودية وبأشياء أخرى أفحش.

على أن روكسيلانا كانت تضمر خططاً جديدة. فقد أعلنت إسلامها، وأخذت تزور المساجد والمدارس، وتقدم العطايا لشيوخها. وكانت تحب أن يتحدث الناس عن تُقاها وورعها. وبالغ الشيوخ في الحديث عن إيمانها بسبب ما كانت تفيض عليهم من الأموال. ولكن ذلك زاد نفور الناس منها لأن ثقتهم في الشيوخ كانت قليلة.

ثم عمدت روكسيلانا إلى التخلص من جواري السلطان الأخريات، بحثِّه على تزويجهن من خلصائه وأهم رجال دولته، ولم تكن تقصد التخلص من منافستهن فقط، فقد بادرت السلطان سليمان ذات يوم بطلب غريب. . .

قالت للسلطان سليمان الأول: لماذا لا تتزوجني، وقد تزوجت أجمل جواريك من أهم رجال دولتك؟.

ولم يدر السلطان سليمان بماذا يجيب. فإن سلطاناً عثمانياً آخر

لم يتزوج منذ القرن التاسع عشر، كما ذكرنا. فكيف يحطم هذه القاعدة التي حافظ عليها آباؤه وأجداده؟.

ولكن روكسيلانا لم تيأس. وعادت تقول له:

- لقد أحببتك، وأخلصت لك، وأنجبت لك خمسة من الأبناء. وأنا سريرتك بالنهار، وخليلتك بالليل، أفلا تعاملني معاملة جواريك اللائي زوجتهن بأفضل رجال الدولة؟

ولم تدم معارضة السلطان طويلاً. فقد استدعى قاضي استنبول ذات صباح، وقال له:

- هذه المرأة، أعتقها من العبودية، وأريدها زوجة لي. وكل ما يخصّها قد أصبح ملكاً خاصاً لها.

وكتب أحد رجال البنوك الأجنبية في استنبول يومئذٍ يقول:

«هذا الأسبوع حدث شيء غريب تماماً في هذه المدينة، شيء غير عادي في تاريخ السلاطين العثمانيين. فقد اتخذ الملك المعظم سليمان لنفسه زوجة جارية سلافية تدعى روكسيلانا، وقد أقيمت الحفلات والولائم. وهناك أقاويل كثيرة حول هذا الزواج، ولا يستطيع أحد أن يفهم معناه».

وقد أمر السلطان سليمان بأن يوزع إفطار الزواج: خبزاً وزيتوناً للفقراء، وخبزاً وجبناً ومربى وفواكه للمقتدرين، طوال أسبوع، وبأن تزين شوارع المدينة، وأن تدور في أنحائها المواكب، وأن تجري العروض الترفيهية في المسرح البيزنطي القديم.

فزينت استنبول بالورود والأعلام القرمزية (رمز تركيا) والخضراء (رمز الإسلام). وامتلأت الشوارع بالمحتفلين يتخللهم حمَلة الشربات

والليمون (المحلى بالعسل والمسك) المثلجين. كذلك كان السلطان سليمان قد سمح لأول مرة بشرب القهوة، ففتحت المقاهي لاستقبال روادها الجدد. وكانت عربات الخبز توزع الأرغفة الطازجة على المحتفلين. وتدور في شوارعها الحيوانات الغريبة، ومن بينها زرافتان كانتا قد وصلتا استنبول مؤخراً.

وقد جاءت هدايا الزواج للسلطان وزوجته من كل مكان. وكانت تدور في شوارع المدينة ساعات قبل أن تتلقاها روكسيلانا في قصرها: ذهب وفضة وتحف وفراء وسجاجيد، يحملها مئات الغلمان. ويحيط بكل منهم عبدان في أبهى حللهما. وفي النهاية موكب الخصيان البيض يتبعهم موكب مماثل للخصيان السود.

وفي كل مساء كان سكان استنبول يهجرون المدينة إلى المسرح البيزنطي لمشاهدة الألعاب العسكرية والرياضية كالطعن بالرماح والمصارعة، وقد حضر السلطان بنفسه بعض هذه العروض. وغطي جزء جانبي من المسرح، كي يتسنى لروكسيلانا وضيوفها مشاهدتها أيضاً. وفي ختام كل عرض، كان غلمان السلطان يدورون على الحاضرين، فينثرون عليهم أكياس النقود.

كيف استطاعت روكسيلانا أن تتخلص من سيدها الأول؟

في آب/ أغسطس عام 1533، اضطر السلطان سليمان إلى ترك أطماعه في أوروبا والالتفات ناحية الشرق. فقد أعدت إيران جيشاً كبيراً لقتاله، حتى اضطر إلى توجيه أكثر قواته ناحيتهم. فاحتل تبريز في تموز/ يوليو عام 1534، ثم بغداد في أخريات ذلك العام. ولكن الإيرانيين عادوا للهجوم عليه. فعقد السلطان معاهدة مع فرنسا في عام

1535، واسترد تبريز في الربيع، كي تبلغه، وهو لا يزال في إيران، أخبار احتلال القوات الإسبانية لتونس.

وكان السلطان سليمان يترك إبراهيم باشا في استنبول خلال غيبته كي يدير أمور الدولة. ولكن إبراهيم باشا كان يحب، على ما ذكرنا، الهدايا الثمينة، ويصر على ألا ينهي أمراً قبل أن ينال نصيبه منها مقدماً، حتى إنه كان على ممثلي الدول الذين يرغبون في مقابلة السلطان «أن يقابلوا إبراهيم باشا أولاً، وأن يقبِّلوا يده، وأن يقدموا له هداياهم، قبل أن يستطيعوا مقابلة السلطان».

وقد نقل إلى السلطان سليمان أن إبراهيم باشا قد جمع ممثلي الدول وقال لهم:

«إنني أنا الذي يحكم هذه الدولة. وما أفعله نهائي ولا مردّ له. فإن لديّ العزم على أن أفعل ما أريد. والسلطان في يدي. وكل ما أعطيه، فلا رجوع فيه، ولا يمكن استعادته، ولكن ما يُعطى من غيري يحتاج مني إلى تأكيد. وحتى السلطان نفسه، إذا أراد أن يعطي، فإنه يحتاج إلى أن أؤكد عطاءه بالموافقة عليه، لأن كل شيء بين يدي: الحرب والمال. وأنا لا ألقي هذا الكلام على عواهنه، وإنما أقوله كي تتفهموا الموقف تمام الفهم».

فهل كان إبراهيم باشا بهذا السوء؟. ومَن الذي كان ينقل هذه الأقاويل عنه إلى السلطان؟.

لقد ساءت العلاقة بين روكسيلانا وإبراهيم باشا لأسباب لم يهتد إليها المؤرخون. مع أن روكسيلانا كانت جارية إبراهيم باشا، قبل أن يهديها هذا إلى السلطان سليمان، وتصبح جاريته ثم زوجته. بل أن بين المؤرخين الأوروبيين من يؤكد أن روكسيلانا كانت حاملاً بابنها سليم

(السلطان سليم الثاني بعد ذلك) قبل أن يضاجعها السلطان. وأن هذا التعليل يفسر السبب في نهاية السلالة العثمانية، ونهاية أولئك السلاطين العشرة العظام، من رجال الحرب والدولة، الذين بنوا مجد الدولة العثمانية، والذين أعقبهم بعد ذلك خمسة وعشرون سلطاناً ضعيفاً لأنهم، فيما يقال، لم يكونوا من الدم العثماني الصافي الخالص.

ومن بين الخطابات التي حفظت في أرشيف السراي، هذا الخطاب الذي كتبته روكسيلانا بيدها إلى السلطان سليمان الأول:

«سيدي. لقد أشعل غيابك ناراً لا تطفأ في جوانبي. فارحم معبودتك المعذبة، وعجّل بخطاباتك، حتى أجد فيها على الأقل بعض السلوان».

«سيدي. عندما تقرأ كلماتي ستتمنى لو كتبت لي للتعبير عن شوقك. فعندما قرأت خطابك الأخير، وكان ابنك محمد وابنتك ميهرامار إلى جانبي، تدفقت الدموع من عيونهما. وقد أصابتني دموعهما بالأسى. إنك تسأل لماذا أنا غاضبة من إبراهيم باشا. وبإذن الله، عندما نجتمع معاً، سأشرح لك، وستعرف السبب».

وقد عاد السلطان سليمان إلى استنبول في كانون الثاني/ يناير عام 1536. ولكنه كان قد أقسم ألا يمس إبراهيم باشا بسوء ما دام حياً. فلما استفتى السلطان سليمان مفتي استنبول في مصيره، أفتاه بأن يرسل من يخنقه وهو نائم «من دون أن تحنث يمينك».

وفي إحدى أمسيات آذار/ مارس عام 1635، تعشّى السلطان سليمان مع إبراهيم باشا، ثم طلب منه، وكان الوقت متأخراً، أن ينام في الحجرة المجاورة لحجرته. وفي أثناء الليل دخل الخصيان الصمّ البكم (وقد ثقبت آذانهم وقطع لسانهم حتى لا يسمعون ولا يتكلمون) فخنقوه.

وفي الصباح خرجت جثته من أحد الأبواب الجانبية للسراي.

وقيل إن السلطان قد ظل مضطرباً طوال الليل. وأنه لم يستطع النوم. وأن روكسيلانا كانت إلى جانبه تهدئه وتسليه، بأحاديثها وقبلاتها.

وعندما توفي إبراهيم باشا آلت أمواله (كما هي العادة) إلى السلطان. وقد تلاه في عهد السلطان سليمان خمسة وزراء عظام. مات أولهم بالطاعون العام التالي، 1636. وطرد الثاني والثالث. واستمر الرابع (رستم باشا زوج ابنة روكسيلانا) حتى وفاته. ثم تلاهم جميعاً محمد سوكولي الذي استمر وزيراً بقية عهد السلطان سليمان الأول وعهد ابنه السلطان سليم الثاني.

❁ ❁ ❁

كان السلطان سليمان آخر السلاطين العثمانيين العظام، وكان مشهوراً كأسلافه بحب القتال، والقسوة، والعزوف عن الجلوس لإدارة شؤون البلاد. ولم يكن يتورع عن التمثيل بالأسرى والمدنيين، ولا عن شنق المئات إذا اقتنع بجرائمهم أو بشبهة في ولائهم. وقد تخلص السلطان سليمان من كثير من أوجه الفساد في دولته بشنق كل من تحوم حوله الشبهات، كان منهم أحد أزواج بناته.

واشتهر السلطان سليمان الأول في أنحاء أوروبا بأنه سليمان «القانوني» لأنه «نظم وأكمل القانون العثماني». إذ أنه أحس أن «الأنظمة ضرورية لسير العالم ولضبط شؤون الناس». وقد وجد عندما تولى الحكم، أحكام الشريعة السمحاء، وأوامر سلطانية، وفرامانات كثيرة. فأمر بنظْمها كلها في «قانون» ذي ثلاثة أقسام: أوامر وقوانين سلطانية في بعض المواضيع، ومثلها لبعض المناطق والمجموعات. ثم «قانون نامه» لجميع أنحاء الدولة العثمانية. وأمر رجال الشريعة بأن

تكون الأحكام متفقة بما يقضي به الشرع.

وقد انتفعت الأقطار الواقعة تحت سيطرة استنبول، كهنغاريا بالذات، بإصلاحاته القانونية، التي انتقلت بعد ذلك إلى أنحاء أوروبا. وأرسل هنري الثامن ملك إنجلترا بعثة خاصة لاستنبول لدراسة «النظم القانونية التي أدخلها السلطان سليمان على أنحاء الدولة العثمانية».

كتب مبعوث الملك فرديناند الأول لاستنبول عن السلطان سليمان:

«لم يكن بين المحيطين بالسلطان رجل واحد يدين بمركزه لشيء آخر غير الأهلية والكفاءة. فلم يكن بينهم واحد يفضل غيره لميزاته. والاحترام الذي كان يتمتع به كل منهم كان يعود إلى الأعمال التي أنجزها في الحياة العامة. فبفضل كفاءتهم وحدها يتقدم هؤلاء الرجال. وهذا أكبر ضمان على أن كل منصب في هذه الدولة يشغل بمن يستحقه. وبمن يمكنه أن ينجح فيه. إن هؤلاء الذين يحظون بأعلى المناصب هم في معظمهم من العبيد وأبناء الفقراء. وبدلاً من أن يخجلوا من أصلهم، كانوا يزهون بما حققوه، ويباهون بأنهم لا يدينون بشيء لميلادهم. ويعرفون أن ما حققوه هو ثمرة التدريب والجهد. ويشكرون الله على نعمه عليهم».

ومع ذلك، فمن الإنصاف أن نردد ما قاله مكيافيلي من أن الإمبراطورية العثمانية كانت «ملكية مطلقة، تقوم على العبيد». وأنها كانت عالماً بأسره منغلقاً ومكتفياً بذاته. وحتى إذا «استوردت بعض الأدوات والآلات لضرورتها، فإن استخداماتها لم تكن تخرج عن النطاق العسكري» دون محاولة توسيع مجال تلك الاستخدامات أو تفهم الحاجات المدنية أو العسكرية التي أدت إلى اختراعها.

وقد كان السلاطين العثمانيون يعتمدون حتى القرن الخامس عشر على العبيد في الجيش، وعلى الأتراك في المناصب المدنية والوزارية. ولكن السلطان محمد الثاني «الفاتح» بدأ في توسيع استخداماته للعبيد.

ولكن روكسيلانا انتقلت بحريمها كله إلى هذه الحجرة، ثم طالبت بحجرات أخرى، إذ كان حريمها يتألف من حوالي مائة جارية وخصي. وحتى خياطها لم يكن يستطيع زيارتها في تلك الحجرة الوحيدة، إذ كان موكبه يضم ثلاثين عبداً.

واضطر السلطان سليمان إلى أن يأمر بتخصيص حجرات كافية لسلطانته وحاشيتها، وإلى أن ينشىء طريقاً خاصاً بين حجرات روكسيلانا الجديدة وغرفتي نوم السلطان. فلم يعد يتحتم على روكسيلانا أن تقطع المسافة الطويلة، عبر حجرات القصر القديمة، بين حجراتها وحجرتي نوم السلطان، وأصبح في وسعها أن تنتقل إلى حجرتي نوم السلطان في خطوتين.

ولكن روكسيلانا طالبت بشيء جديد. سرعان ما أجابها إليه السلطان. هو أن تفتح لها نافذة تحت القبة التي تعلو السلاملك، حيث يناقش السلطان سليمان مع وزرائه وقادته مشاكل الدولة. وبهذا أصبح في وسعها أن تنصت لكل ما يناقش من أمور عامة أو خاصة، وأن تؤثر بصورة مباشرة في القرارات التي يتخذها السلطان في أمور الدولة. وهذه طبعاً من صفات الجاسوس أينما كان.

❀ ❀ ❀

لقد أحبّت روكسيلانا السلطان سليمان، وأحبّت معه شهوة الحكم. وعندما تملكتها هذه الشهوة، أرادت أن يكون السلطان سليمان لها وحدها، وأن تشاركه كل أعماله.

وكانت روكسيلانا تغير من زيارات السلطان القليلة لمنافستها، السلطانة جلبهار. وحدث عقب إحدى هذه الزيارات، أن ذهبت روكسيلانا إلى جلبهار في جناحها، وتلاحمت معها، وتضاربتا بالأيدي.

ونجحت جلبهار في خدش وجه روكسيلانا.

وكانت هذه هي الفرصة التي تنتظرها روكسيلانا. فقد امتنعت عن رؤية السلطان، بحجة أن وجهها قد خدش، وأنها لا تحب للسلطان أن يراها على هذا الشكل.

ولكن هجران روكسيلانا لم يطل. فالسلطان كان قد أرسل ابنه من جلبهار، مصطفى، حاكماً لأحد الأقاليم. فطلب إلى والدته، جلبهار، أن تلحق به فترة من الزمن، فتركت جلبهار استنبول. وانفردت روكسيلانا بالسلطان والسراي.

ثم توفيت الملكة الأم، والدة السلطان سليمان، فأصبحت السلطانة روكسيلانا سيدة القصر من دون منازع.

وعندما عاد الأمير مصطفى إلى استنبول مع والدته السلطانة جلبهار، وجدا أن السلطان سليمان قد تغير تغيراً كاملاً من ناحيتهما.

وفي عام 1553 اتهم السلطان سليمان ابنه بمحاولة التآمر عليه، وكان الوالد وقتها في الستين من عمره، والابن في الثانية والثلاثين. وكان الاثنان قد خرجا لمقاتلة الإيرانيين.

ويقال أن السلطان سليمان قد استدعى ابنه الأمير مصطفى إلى خيمته لمواجهته بما يقال عن تآمره ضده. ولكن الابن أنكر الاتهام. ثم دخل الخصيان الصم البكم، فأحاطوا بمصطفى. فقاتلهم، ولكنهم ظفروا به، وخنقوه أمام والده. ثم أرسلت جثته إلى استنبول، ومعها خطاب من السلطان سليمان مكتوب بكتابة بيضاء فوق ورق أسود يعلن

بداية ثلاثة أيام من الحداد لوفاة الأمير مصطفى. فألقى الوزراء ورجال الدين بعمائمهم إلى الأرض، وقلبت السجاجيد، ورفعت الزينات الخ.

وقد شيع جثمان مصطفى في مشهد مهيب. فقد كان محبوباً في أواسط الجيش والحكومة، وبين أفراد الشعب. وحمل نعشه على عربة تجرها ثمانية خيول، وأعطيت للخيول بعض المواد التي تجعل عيونها تسيل بالدموع.

وبوفاة مصطفى، ضمنت روكسيلانا عرش السلطنة لأولادها...

وفي عام 1555، بعد وفاة مصطفى بعامين، كتب المبعوث الفرنسي ديه بوسبيك:

«إن صحة السلطان بالنسبة لسنّه جيدة. وربما تعود المظاهر الخارجية غير المطمئنة إلى مرض خفي لا نعرف عنه شيئاً. ولكن هناك إشاعة مفادها أنه قد أصيب في فخذه بسرطان. وربما كان هذا ما يحاول السلطان أن يخفيه عن مبعوثي الدول الأجنبية. لأنه يظن أنها ربما خشيته أكثر إذا ما كانت صحته جيدة».

وكان السلطان سليمان قد شهد آخر معاركه العظيمة. ولكنه كان شديد المحافظة على المقدرة القتالية لجيشه القوي والبالغ عدده 50000 مقاتل. وكان يداوم على تحريكه بين الميادين الإيرانية والروسية والبلقانية. ولكن الضغط الخارجي على جيوش السلطان سليمان كان قد اشتد خلال الأعوام الباقية من حكمه. ومع أنه قد استعاد طرابلس في عام 1551، فقد أخفق الأسطول العثماني أمام البرتغاليين في هرمز. واحتل الروس قازان في عام 1552. ثم استراخان في عام 1553. وقضى السلطان الأعوام الباقية من حكمه في مقاتلة الروس، ثم الإيرانيين. حتى عقد مع الأخيرين صلح أماسيا في عام 1555. واستمر حتى آخر أيامه يقاتل الهنغاريين.

تواريخ في حياة روكسيلانا

1506 ولادة روكسيلانا «خوريم».

1523 أسر روكسيلانا في غَلَطَه (الآن في رومانيا).

1524 ولادة أول أبناء سليمان وروكسيلانا: الأمير سليم.

1529 زواج روكسيلانا والسلطان سليمان.

1536 اغتيال الوزير الأكبر إبراهيم باشا.

1541 حريق استنبول الذي شمل قصر السلطان، وانتقال روكسيلانا إلى حجرات جديدة قبالة حجرتي نوم السلطان.

1544 رستم باشا زوج ابنة روكسيلانا يصبح وزيراً أكبر.

1553 اغتيال مصطفى ابن جلبهار.

1558 وفاة روكسيلانا.

ولدا روكسيلانا يخيبان آمالها

توفيت السلطانة روكسيلانا في عام 1558، فلم يحس بوفاتها كامرأة أحد. ولكن السلطان لا شك قد تأثر بوفاتها، حتى وإن لم يظهر تأثره على الملأ. فلم يعرف السلطان سليمان بعد روكسيلانا امرأة أخرى. وظل باب غرفتها مغلقاً بقية أيام حياته، من دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منه أو العبث بشيء من محتويات غرفتها.

وكان السلطان سليمان قد ترك تصريف الأمور لزوج ابنته ووزيره رستم باشا. ولم يعد يداوم على الظهور في السلاملك. ولكن رستم باشا توفي في العام التالي، مخلفاً وراءه 815 ضيعة و 476 طاحونة و 1700 عبد. وملابس وذهب وكتب. وكتب دوميني سكرتير مبعوث

البندقية لاستنبول يقول:

«إن السلطان لم يعد يجلس على العرش، أو يصرف مقاليد الأمور. وقد أصبح ضعيف البدن. وكان مريضاً طوال الأشهر القليلة الماضية. فقد تورمت رجله، وتورم وجهه، وشحب لونه، ولم يكن يستطيع أن يأكل إلا قليلاً. وفي خلال الشهر الماضي أغمي عليه خمس مرات. وفي واحدة من هذه المرات احتار خدمه فيما لو كان قد مات أو ما زال حياً».

وفي عام 1559 اختلف ولدا السلطان سليمان الأول من روكسيلانا: سليم وبايزيد. وتقاتلا في أيار/ مايو من هذا العام. وهزم سليم بايزيد. ولجأ الأخير مع قلة من أعوانه إلى إيران. وبعد ذلك بعامين، سلمت إيران بايزيد إلى السلطان سليمان لقاء فدية. فأعدم في 25 أيلول/ سبتمبر عام 1561.

وفي صيف عام 1566 خرج السلطان سليمان لمحاربة الإمبراطور مكسيميليان الثاني. وكان السلطان شيخاً في الثانية والسبعين من عمره. وكان أضعف من أن يركب حصانه. فحمل في مركبة. ولم يكن يستطيع تحمل وعورة الطريق، فتقدمته فرقة خاصة لإصلاحها وتسويتها قبل مرور مركبة السلطان عليها.

ولكن الغيرة والقسوة اللتين عرفتا عنه لم تكونا قد خفتا. فكان يدفع جنوده دفعاً إلى الحرب. وقد أمر في طريقه للقتال بإعدام عدد من الحكام الذين وجدهم قد تهاونوا في مده بالجنود والإمدادات.

وفي 5 آب/ أغسطس عام 1566 ضرب السلطان سليمان الحصار حول تزيجتفاز، ونصب مدافعه حولها، ثم بدأ في ضربها. ولكنه توفي في خيمته، بينما جنوده يحاربون، في 6 أيلول/ سبتمبر عام 1566. وبقي الخبر طيّ الكتمان. فخنق الطبيب الذي شهد الوفاة. وأقيمت الجثة على

كرسي العرش داخل الخيمة صباح كل يوم، وطوال ثلاثة أسابيع. بينما طيّر الخبر إلى ابنه سليم كي يسرع إلى استنبول.

وعندما بلغ موكب سليم غابة بلغراد، خارج استنبول، في 24 أيلول/ سبتمبر من ذلك العام، أعلنت وفاة السلطان سليمان. ونودي بسليم سلطاناً باسم السلطان سليم الثاني. فدخل سليم العاصمة سلطاناً. وكان أول ما فعله السلطان سليم هو إحضار حريمه الخاص، وعلى رأسه السلطانة نور بانوه، إلى السراي، وإبعاد حريم والده إلى «قصر الدموع».

وقد كتب مبعوث البندقية إلى استنبول باربارو بعد ذلك:

«إن من رأى وجه السلطان سليم الثاني وهو منفوخ بالنبيذ القبرصي، وتأمل جسمه القصير المنحني من الإنغماس في الشراب، لم يكن ليقدر فيه جهاده، أو تزعمه للمجاهدين. فقد كان سليم يفضل حياة الحريم والخصيان على قيادة قواته. وكان يقضي أيامه في الاستمتاع الحسي منغمساً في الشراب والجنس».

ولعل أحسن ما فعله السلطان سليم الثاني هو أن ترك شؤون الحكم لوزير والده الأكبر سوكولي. ففتح اليمن في عام 1567. وصالح الهنغاريين في عام 1568. ثم الروس في عام 1570. وأعاد فتح تونس، واستولى على قبرص، في عام 1570. ولكن فظائع الجنود الأتراك في فتح قبرص أدت إلى اتحاد البندقية مع إسبانيا، وإعدادهما لثلاثمائة سفينة حديثة قضت على الأسطول التركي في معركة لبانتو عام 1571. وقد أنهت هذه المعركة البحرية الهامة سيطرة العثمانيين على البحر الأبيض المتوسط.

وقد توفي السلطان سليم الثاني في 12 كانون الأول/ ديسمبر عام 1574 بعد أن أفرط في الشراب، ثم دخل ليستحم، فسقط سقطة قاتلة في حمامه.

الفهرس

تانيا أفسيفتش (Tania Avsivitch) 7

تانيا ماركوفنا راديونسكا (Tania Markovna Radioneska) 11

أول شاب: صندوق بريد 13

عصابة الاغتيال 14

السوفياتي الهارب 15

أين اختفت 17

تيشلي دوفيس (Tychli Dovis) 18

جابرييل جاست (Gabrielle Jast) 23

جانيت شيشولم (Janette Chicholm) 26

جواسيس بصفة ديبلوماسية 27

ترتيب لقاءات الصدفة بعيداً عن العيون الروسية 29

انكشاف بينكوفيسكي وإعدامه وفرار جانيت وزوجها 30

جوزيفين بيكر (Joséphine Baker) 32

جوزيفينا كيرورو (Joséphyna Kiroro) 34

جولي سيرز (Joly Syrz) 43
التسلل إلى أفغانستان 44
الاجتماع بمسعود 45
كيسنجر المستشار 46
قائمة من التهم 47
جيرترود بيل (Girtrod Bill) 49
ثراء وحزن 51
شغف بالشرق 53
الوجه القاسي 57
الجاسوسة الأولى لمكتب القاهرة 61
جين هورني (Jynn Horny) 67
حايا زايدنبرغ (Haya Zaydnburg) 81
حكمت فهمي (Hikmat Fahmi) 84
احتياجات روميل من الشبكة 86
الدور الذي لعبته حكمت فهمي 87
تقييم أعمال الشبكة 88
حنان ياسين ياسين (Hanan Yaseen Yaseen) 92
دوروثي مينسك (Dorothy Minsk) 101
دولي (Dolly) 110

راشيل رافول (Rachell Rafoul) 119
رايسا فروبليفسكي (Rayssa Vroblifeski) 121
روث كليفر (Roth Clever) 136
روث كيلم كوهين (Roth Kylm) 137
الانتقال إلى بيرل هاربور: 145
الخطوبة بين روث وأحد ضباط البحرية الأميركية: 146
تاواسي موريميرا 148
روث ويجير (Roth Wiger) 153
روز أونيل غرينهو (Rose Onel Greenho) 158
روز بنرغ (Rose Benerg) 159
روزا مردخاي (Rosa Mardakhay) 160
● أين ذهبت المحفظة؟ 162
● الجاسوس الألماني يتدخل! 163
● مصير روزا 164
● عودة إلى سارا! 164
● توقيف نور الدين بك 168
● في حفلة ساهرة 169
روكسيلانا (Roxelana) 170
السلطان سليمان يتزوج روكسيلانا 189

كيف استطاعت روكسيلانا أن تتخلص من سيدها الأول؟ . . 194
تواريخ في حياة روكسيلانا 202
ولدا روكسيلانا يخيبان آمالها 202

Bibliotheca Alexandrina
0623502

مركز الشرق الأوسط الثقافي